العقل الباطن

أو

مكنونات النفس

بحث في النفس البشرية وتجليها في الاوهام والاحلام
وكيف تتسامى وكيف تحدث الهموم والامراض
العقلية مع ايضاح الطرق التي يمكن الشاب
أن يتبعها في اصلاح نفسه وترقيتها

تأليف

سلامه موسى

مؤلف « اليوم والغد » و « حرية الفكر وابطالها في التاريخ » و « نظرية التطور وأصل الانسان » الخ الخ

عنيت بنشره

ادارة الهلال بمصر

سنة ١٩٢٨

العقل الباطن

أو

مكنونات النفس

يبحث في النفس البشرية وتجليها في الاوهام والاحلام
وكيف تتسامى وكيف تحدث الهموم والامراض
العقلية مع ايضاح الطرق التي يمكن الشاب
أن يتبعها في اصلاح نفسه وترقيتها

تأليف

سلامه موسى

مؤلف « اليوم والغد » و « حرية الفكر وأبطالها في
التاريخ » و « نظرية التطور وأصل الانسان » الخ الخ

عنيت بنشره

ادارة الهلال بمصر

سنة ١٩٢٨

المقدمة

موضوع هذا الكتاب جديد في اللغة العربية . وهو في اللغات الاوروبية حديث العهد يقوم بزعامته فرود العالم النمسوي يعاضده ويروج نظرياته وينقحها طائفة من العلماء مثل يونج في سويسرا وأدلر في ألمانيا وبودوان في فرنسا ورفرز في انجلترا : وربما كان هذا الاخير أكبر من نقح في نظريات فرود . ولكن فضل الاختراع والابتكار لفرود وحده

وقد كان في ميسوري أن أنقل كتاباً من مؤلفات هؤلاء الى العربية وأقنع بذلك ولكني وجدت أن لهجة التأليف تساعد القارىء على الفهم أكثر من لهجة الترجمة . وأنا مع ذلك في تأليفي انما ألخص ما درسته عن هؤلاء وفي التلخيص تنفية وتنقية أراعي فيهما مصلحة القارىء العربي التي قد لا يساعدني النقل في بلوغها . وقد قرأت نحو عشرين كتاباً في هذا الموضوع ورأيت مصداق النظريات التي تقول بها في نفسي وفي غيري . ولذلك فاني سأعتمد في ضرب الامثال على ما مر بي بالذات أو بأصدقائي . وقد توقيت فيه بقدر الامكان ذكر الالفاظ العلمية لانه موضوع لجمهور القراء كما توقيت فيه الالاعيب

الادبية الرخيصة مثل « رأي فيما يرى النائم » بدل حلم و« الجاثوم » بدل كابوس الخ

ولما كان هذا الغرض نصب عيني فاني اضطررت أيضاً الى عدم تأكيد الغريزة الجنسية مع خطورتها العظيمة في هذا البحث . وذلك لان التبسط فيهذا الموضوع يحتاج الىعبارات قد لا تتفق والحياء . وليس هذا الكتاب موضوعاً للعلماء حتىيقال أنه لا حياء في العلم . ولكنيمع ذلك لم أهمل هذا الموضوع كل الاهمال. ولم يكنالاهمال على كل حال مستطاعاً

واعتقادي أن القارىء اذا قرأ هـذا الكتاب بترتيب فصوله بدون تقديم فصل على آخر أمكنه في النهاية أن يعرف سريرة نفسه ويقف على ميوله ويفحصها ويفسر أحلامه ويعالج أمراضه النفسية

ويمكن المستزيد أن يقرأ كتابي « اليوم والغد » ففيـه فصول تتعلق بهذا الموضوع أما الذين يعرفون الانجليزية فيمكن المبتدىء أن يقرأ

1 - W. W. Atkinson's The New Psychology
2 - „ „ „ Suggestion & Auto-suggestion
3 - C. Baudouin's Suggestion & Auto - suggestion

أما المتوسط فيمكنه أن يقرأ :

4 - S. Freud's Introductory Lectures on Psycho - analysis

وبعد ذلك يمكنه أن يتوسع بقراءة شيء من مؤلفات هؤلاء :

Freud, Rivers, Jung, Adler, Tansley & Varendonck

في ذكر العاملين

يبحث هذا الكتاب في العقل الباطن أي ذلك العقل الذي يعمل على غير وعي منا وبه نحلم ونحن نائمون وبه تخطر علينا الخواطر ونحن في اليقظة الغافية حين لا نكون متنبهين أي حين يكون العقل الواعي غير يقظ تمام اليقظة

فهذا العقل الباطن يعمل كأنه مستقل عنا . وهو يقرر ميولنا وأمزجتنا بل هو الذي يكوّن أخلاقنا وكثيراً ما تحدث لنا منه أمراض نفسية خطرة جداً

وأول من عمد الى درس هذا العقل هو فرود العالم النمسوي فهو المعلم الاول وسائر الباحثين تلاميذه المعلقين على نظريته أو المنقحين لها . وهو يعتقد أن أهم نوازع العقل الباطن التي تحدث لنا الخواطر والاحلام هو الغريزة الجنسية التي تتنكر فتبدو لنا بأشكال مختلفة . وان الاحلام تظهرنا على الثقافة القديمة التي كانت فاشية منذ آلاف السنين بين آبائنا

ويونج أستاذ سويسري يجري على أسلوب فرود ولكنه يؤمن بغريزة الرقي المتسامية باعتبارها القوة الاصلية التي تبتعث الاحلام والخواطر وتحدث الامراض النفسية ويرى أثرها في الاساطير الدينية

والثقافة القديمة . وهو يختلف أيضاً عن فرود لانه يقسم الناس قسمين من حيث المزاج أحدهما ذلك الذي يستجيب للبيئة بالدخول الى نفسه فيفكر ويجتر أفكاره . والآخر ذلك الذي ينشط للعمل ويؤثر في البيئة. وهذا التميز ضروري عنده في معالجة المريض أو تفسير الحلم

أما أدلر فهو أول تلاميذ فرود وهو أحسنهم . وهو لا يؤمن بأن الغريزة الجنسية هي القوة الاصلية التي تحدث الخواطر والاحلام وتكون الاخلاق وانما يكاد يقول برأي نيتشه بأن الرغبة في القوة والتوسع والاستعلاء هي الاصل أو هي الطاقة التي تتكون منها أخلاقنا وخواطرنا وأحلامنا وأمراضنا . (وقد قبلت أنا رأي يونج بتنقيح طفيف . فالقوة النفسية الدافعة لنا والمكونة لشخصياتنا هي في اعتقادي الرغبة في الرقي . وهذا ما نستقرئه من التطور . فان الطبيعة ترمي الى الارتقاء) , ولادلر تنقيح آخر في النفسلوجية الحديثة وهو أنه يعزو الى النقص الحادث في الجسم أو النفس أو الاحساس قوة تدفع الشخص الى الاعتياض منه بكفاية أخرى . وقد سماه « مركب النقص » كالاعمى يجود ذاكرته والاعرج يتجمل في لباسه والالكن يتعود الخطابة . وهو يعتقد أن العبقرية ترجع الى نقص ما

أما بودوان فرجل فرنسي له فضل آخر وهو ابراز قوة الاستهواء في المعالجة وخاصة ذلك الاستهواء الذاتي حين يؤثر الشخص في نفسه ويجعل عقله الباطن طوع ارادته كأن يلهم نفسه النجاح فينجح أو الشفاء فيشفى

وأخيراً نذكر رفرز وهو انجليزي استطاع ان يجعل النفسلوجية الحديثة علماً متصلا بنظرية التطور فاننا اذا اعتبرنا فرود المخترع

الاول لهذا العلم والممارس لفنه وواضع أساليبه فاننا نعتبر يونج فيلسوف هذا العلم من حيث توسيع دائرته حتى يشمل ثقافة الانسان كلها وأن هذه الثقافة كامنة في نفس كل منا . أما رفرز فانه العالم الذي لا يطيق الفلسفة ولذلك فهو أبعد الناس عن يونج وهو ينكر أن الاحلام تعبر عن الثقافة القديمة بل يرى أن رموز الحلم تكتسب من تجارب الشخص فقط

هؤلاء هم أقطاب النفسلوجية الحديثة . وطريقتهم كلهم تحليل النفس بالسؤال والجواب بحيث يذكر المريض حلمه أو خواطره فيأخذ المحلل في سؤاله عنها ويقرن كل معنى طارىء الى غيره حتى يستكشف العقل الباطن ويقف المريض على كنه مرضه فيشفى . ولكن بودوان يزيد على ذلك طريقة الاستهواء ويستعمل التحليل والاستهواء معاً . أما رفرز فانه ينصح بتقييد الخواطر التي تمر بالعقل وقت الاستيقاظ عقب الحلم مباشرة ثم تقرن هذه الخواطر الى مادة الحلم فيمكن عندئذ تفسيره

الرقي طبيعة الانسان

ان الهم الاكبر للنفس البشرية هو ارتقاؤها وتطورها من حسن الى أحسن ومحاولتها الصعود ولو كان في ذلك فناؤها

فالانسان حيوان شريف بالطبع طموح الى العلاء دائب السعي في الرقي . وليس تطوره في الماضي هو الدليل الوحيد على ذلك إذ هو في عقله وجنونه كما في احلامه وفي خواطره دائم الطموح الى العلاء والرقي

فنظرية التطور هي نظرية النشوء « والارتقاء » وذلك لأن تاريخ الاحياء في الماضي يدل على أن الاحياء كانت في تطورها ترتقي من حال الى حال . وهذه النزعة التي تتغشى تاريخه في الماضي لا يمكن الا أن تكون مستسرة في نفسه نازعة به في المستقبل كما نزعت بأسلافه في الماضي الى الارتقاء

وقديماً بحث الناس عن السعادة ولكننا الآن نكاد نتفق على أنها هي الشعور بالرقي . سواء أكان هذا الرقي بزيادة الصحة أو المال أو الجاه أو العلم . فما دمنا نزداد رقياً فنحن سعداء . وذلك لأن الرقي هو في صميم طبائعنا كما هو في صميم تاريخ الانواع أي

تطورها. واذا بدأنا نشعر بأننا قد وقفنا عن الارتقاء فذلك هو بدء الشعور بالشقاء

ويمكننا أن نتحسس هذه النزعة حين نغفو غفوة قصيرة فنستسلم لخواطر لذيذة كأن نعتقد أننا صرنا وزراء أو علماء أو ملوكاً . ونشعر بالسعادة تغمرنا لهذه الخواطر لان هذه الخواطر تشبع في أنفسنا شهوة الرقي كما نفهمه من الظروف التي تحوطنا. فالمقامر يشعر أنه قد ربح مبلغاً جسيما يجعله في مركز من السيادة يطمح اليه. والنائب في البرلمان تخطر له خواطر لذيذة عن الوزارة التي سيترشح لها . والشحاذ تملأ ذهنه خواطر حلوة عن اللقطة التي سيلقاها فيغتني بها

في هذه الخواطر نجد طموحاً وتوسعاً ورقياً .

وهناك من يجن فيشعر أنه ملك وان الملوكية من حقه فيأمر وينهي بلهجة الملوك . فهو في جنونه يطمح الى الارتقاء من حاله الوضيعة الى حال قد تخيلها حتى صارت مرضاً في ذهنه

ثم اعتبر هذا الرجل المنتحر كيف يرضى بقتل نفسه لانه لا يرى أن الظروف المحيطة به تتفق ورغبته في الارتقاء . فلو أن نفس الانسان كانت بطبيعتها منحطة نازلة وليست راقية صاعدة لما رضي انسان أن ينتحر لانه انما ينتحر لانه يرغب في ذلك الرقي الذي يجلبه المال أو الجاه أو الشرف أو العرض أو الصحة

وقد يخطىء المنتحر أو المجنون معنى الرقي . ولكن العبرة بالنزعة أما المعنى فانه يكتسبه من الوسط

فلب الحياة هو الرقي وفي صميم نفوسنا هذا الطموح الى

الارتقاء . ونحن عند ما نحب المرأة الجميلة ونشتهي أن نتزوجها انما نفعل ذلك بفعل هذه النزعة التي تحملنا على أن نقرن ذاتنا بذات جميلة فنرتفع في ذريتنا بارتفاعها . وقد نخطىء هنا ايضاً معنى الرقي فنحب المرأة المثرية

فالنفسلوجية الحديثة تقول ان الانسان نزوع الى الارتقاء . ومن هنا فضلها على الاخلاق لانها تجعل الرغبة في الخير أساساً لهذا العلم وتفرض فرضاً أولياً ان الانسان راق بطبعه لا تتوافر له السعادة حتى يكون دائباً في الارتقاء سواء أكان ذلك في الفرد أم في الجماعة . ولكن هذا النزوع نفسه هو علة همومه وجنونه بل أحياناً انتحاره

النفس وطبقاتها

كان العلماء قبل ٣٠ أو ٤٠ سنة اذا بحثوا في التفكير وطرقه استحال بحثهم الى منطق أو قواعد منطقية تتوهم منها أن الانسان حيوان عاقل يفكر بعقله ويعي ما يفكر فيه . ولكنهم الآن أكثر تواضعاً يستشفون الحيوان القديم تحت البشرة الانسانية ويعرفون أننا بعيدون عن المنطق في تفكيرنا . ويعرفون أيضاً أن العقل على سموه هو أضعف أدوات التفكير عندنا قلما يثبت على النظر في موضوع دون أن يشرد

فقد أحاول أن أفكر في موضوع ما فلا أكاد أبدأ وأضع ترسيم البحث حتى أرى أن عقلي قد شرد وجمح فأتذكر على الرغم مني ميعاداً ضربته لصديق . أو قد أتجشأ من طعام ثقيل سابق فينحرف تفكيري ثم أرى الذكرى تنبعث على أثر هذا التجشؤ فأنشأ افكر في الطعام وفي بعض عادات سيئة في الطبخ . ثم أعاود البحث فلا أكاد اقضي فيه دقيقتين أو ثلاثاً حتى يمر بذهني خاطر يذكرني باهانة لحقتني منذ يوم أو منذ سنة ثم يخطر ببالي أن هذا الذي أهانني لم أقض معه حقي في توبيخه .

وهكذا . فلو تأملت نفسي في هذا التفكير وكيف يشرد فكري

وكيف تطرأ عليه الخواطر بلا ارادة مني وكيف أتأثر أحيانا بحركة أمعائي عرفت من ذلك كله اني لا أفكر بعقلي . وانما افكر بشيء آخر أكبر من عقلي

وهذا الشيء الآخر هو النفس . هذه النفس المتألفة من غرائزي القديمة ومن هذا الجسم الذي يتأثر منها ويؤثر فيها ومن العقل الباطن الذي يحدث لي الاحلام وأنا نائم ويورد عليّ الخواطر وأنا في غفوة اليقظة ومن العقل الواعي الذي أفكر به أحياناً وأنا أعي ما أفكر فيه

فأنا افكر بنفسي ولست أفكر بعقلي

ولكن هذه النفس طبقات أقدمها وأرسخها هو تلك الغرائز القديمة التي نشترك فيها والحيوان القديم مثل الشهوة للطعام . يليها هذا العقل الباطن الذي يعمل في الحلم وأنا لا أعي بعمله واخيراً أي أن آخر طبقة فيها وأحدثها هو هذا العقل الواعي الذي نفكر به أحياناً تفكيراً مدبراً منطقياً

وطبقات هذه النفس تثبت بنسبة قدمها ورسوخها . فنحن مثلا اذا عمدنا الى مخدر ما فتناولناه كان أول ما يتخدر به في نفسنا هو هذا العقل الواعي لانه أحدث ما في أنفسنا فهو بمثابة الشجرة حديثة الغرس أيما ريح تهب عليها تميلها أو تكسرها . فاذا ثملنا قليلا عزب عنا هذا العقل فلا نطيق أن نقرأ كتابا علمياً ولا نطيق الجدل المنطقي . وفي هذه الفترة نجد ان العقل الباطن عقل الخواطر والاحلام ينتبه فنستسلم لخواطر لذيذة . وكل ذلك وغرائزنا القديمة باقية كما هي لم تتأثر بهذا المخدر لأنها أقدم ما في نفوسنا فهي

لا تتزعزع بالسهولة التي يتزعزع بها عقلنا الواعي أو حتى عقلنا الباطن مع ثباته . ولكن اذا نحن أدمنا الشراب تزعزعت الغرائز القديمة فنقيء مثلا أو لا نستطيع المشي

ففي كل منا عقلان : عقل واع حديث النشأة في نفوسنا سريع التعب هو عقل اليقظة والتدبير والعلم . وعقل باطن قديم لا نعي بما يفعل هو الاصل في خواطرنا وفي أحلامنا

وعقلنا الواعي هو العقل الراقي الذي به ندبر تدابيرنا وهو أصل الاكتشاف والاختراع والبحث العلمي يمكننا أن نجادل ونناقش به. وما دمنا في يقظة تامة لا يعترينا الكلال أو النعاس فهو يسيطر على العقل الباطن فنضبط لساننا عن السهو والخطأ . ولكن اذا تعبنا كان هو أول ما يشعر بالتعب فيغير عليه العقل الباطن ويحشد رءوسنا بالخواطر اللذيذة. وأحياناً اذا كانت لنا نية مخبوءة فانها تبقى مستورة ما دمنا في يقظة وما دام عقلنا الواعي مسيطراً . فاذا ثملنا بالخمر أفشينا هذه النية لأننا عند ما نثمل تتراخى رقابة العقل الواعي على العقل الباطن فيعلن هذا نياتنا

وموضوع هذا الكتاب هو العقل الباطن أي هذا العقل الذي نحلم به والذي يورد الينا الخواطر اللذيذة . فقد أثبتت الابحاث أنه هو الذي يقرر عقائدنا الدينية والسياسية ويكوّن الاخلاق والامزجة للناس ويعمل لرقيهم أو انحطاطهم فدرسه هو درس للشخصية الانسانية كلها

وهذا العقل الباطن قديم في نفوسنا وطريقة اقناعه ليست المنطق بل الايحاء . وهو يجري على أساليب قديمة في تفكيره . فهو

لا يفهم مثلا الصور المجردة للمعاني . ولذلك فطريقة تفكيره هي الرموز أي أنه يضع للمعنى المجرد كالموت أو الشرف أو الحياة رمزاً مجسما كما نرى ذلك في الاحلام

ثم هو في أغراضه يسير على الطرق الصبيانية فيطلب اللذة والسرور فقط . فنحن مثلا اذا تخاصمنا مع أحد الناس وتركنا الخواطر تجري بلا عائق من العقل الواعي أي بلا رقابة منه الفينا أنفسنا نتخيل هذا الخصم وهو مقهور مهان أمامنا . فاذا نمنا وزالت سيطرة العقل الواعي تماماً رأينا هذا الخصم ونحن نضربه أو نقتله مع أن موضوع الخصام قد لا يتطلب منا وقت وعينا ويقظتنا سوى أن نلوم هذا الخصم لوماً خفيفاً

فعقلنا الباطن يجري على أساليب آبائنا المتوحشين وغرائزه كلها غشيمة في الحب والانتقام لم تتهذب. وهو يجري على الثقافة القديمة ويكتسب تجارب من حياة الصبا او الشباب ثم يحيلها الى رموز . وهذه الرموز التي نراها في الحلم تشبه كل الشبه بل قد تتفق أحياناً كثيرة والرموز التي كان يرمز بها آباؤنا للمعاني حين شرعوا في تأليف اللغات ووضع الالفاظ وايجاد الاستعارات والمجازات التي هي في الواقع رموز

ويمكن أن نسمي العقل الواعي : عقل الثقافة الحديثة

أما العقل الباطن فهو : عقل الثقافة القديمة

ونحن في تفكيرنا نستعمل العقلين كما هو ظاهر مثلا من الشاعر الذي يؤلف القصيدة فانه يدبر الافكار أولاً ويرصد المعاني ويختار الالفاظ على وعي . ثم مع ذلك يستعين بما يلهمه اليه عقله الباطن

من خواطر في المعنى أو في اللفظ على غير وعي منـه . واذا أنت ملت القصص القديمة والاشعار الجاهلية وأدب القدماء على وجـه العموم ألفيته في أكثره من عمل العقل الباطن خواطر متوالية تنبيء عن أغراض وأمان صبيانية كما نرى في أساطير المصريين القدماء . أما العلم الحديث فقائم على العقل الواعي

ويحدث أحياناً ان هـذا العقل الباطن يطمو بالعقل الواعي فيحدث من ذلك جنون بحيث يعمل المريض أعمالا لا يعي بها ويسلك مسالك صبيانية ويتخيل الخيالات أو يأتي بحركات هي كالرمز لاشياء ينويها في نفسه أو هو يستجيب للمنبهات استجابات قديمة كما يحدث في الـكابوس مثلا

العقل الباطن

لنا عقل واع نعمل به أعمالنا على وعي بما نعمل ولنا عقل باطن يعمل وكأنه بعيد عنا. وذلك اذا غفونا أو نمنا. ففي الغفوة بعد الغداء مثلا نرى الخواطر تجري متلاحقة وفيها السخيف وفيها المعقول ونكاد لا نعي بها الا اذا وقفنا في مجراها . وكذلك في النوم تجري احلامنا على غير وعي منا وفيها من السخافات ما نضحك منه عند اليقظة

ولسنا نشك في أنه ليس في الحلم وعي . وكذلك الخواطر تجري على غير وعي منا . ولكننا مع ذلك نشعر بأننا نتسلط عليها أكثر من تسلطنا على الاحلام . وهي لهذا السبب قليلة السخف اذا قوبلت بالاحلام لان العقل الواعي الحديث يتغلب عليها ويجعل فيها شيئاً من المنطق

والانسان أكثر الحيوانات وعياً بدليل ان له أمسه وغده . ولكن الحيوان ليس محروماً كل الحرمان من الوعي . فان أصل الوعي هو التردد. فنحن مثلا قد نمشي في الشارع ولا نعي بما حولنا أو بالطريق كل الوعي فاذا عثرنا وترددنا في الانحراف لاتخاذ خطوة مناسبة زاد وعينا بالطريق . ففي كل الحيوانات المترددة

في مسلكها شيء من الوعي هو على أقل درجاته في تلك التي تتسلط الغريزة على مسلكها وعلى أعلى درجاته في ذلك الذي يتسلط العقل على مسلكه . وهو الانسان

وقد قلنا ان عقل الثقافة الحديثة لا يتحمل التعب كثيراً . وهو أكثر ما في النفس وعياً ولذلك قلما نستطيع الاقامة على الوعي التام الا مدة قليلة . ونحن في حاجة الى النوم لكي نريح هذا العقل بازالة حالة الوعي . وأحياناً نلجأ الى الخواطر السائبة تنطلق كما تشاء لكي تخفف عنا التعب الذي يجلبه علينا الوعي . واذا شغل بالنا هم عظيم يزيد حالة الوعي عندنا فاننا كثيراً ما نهرب منه بشرب الخمر أو بالتدخين أو القهوة أو نحو ذلك

وفي حالتي النوم والاستسلام للخواطر حين يغفو العقل الواعي ينتبه العقل الباطن ولا نعني بذلك أنه كان نائماً فانتبه . بل نعني أنه في اليقظة يكون تحت سلطان العقل الواعي فهو مكبوت مقيد . فاذا نمنا أو غفونا انطلق يسير في مجراه فنراه عندئذ يفكر بعقل الحيوان أو الثقافة القديمة أو يستسلم للملاذ

فقد أكون مغتاظاً من أحد الناس . فما دمت في اليقظة وفي الوعي التام فأنا أفكر في مصالحته والاتفاق معه وفي تغليب الخير على الشر وفي تقدير منفعتي من حيث مصالحته أو مقاطعته . وقد ترتفع نفسي الى البر فأفكر أيضاً في اصلاحه ومطايبته وأراني ألتمس له المعاذير . فاذا نمت ذهب عني هذا العقل الحديث فأراني أقتله أو أضربه بقوة عقل الحيوان المنطلق الآن في نومي أو ربما شتمته بألفاظ فنية هي نتيجة الثقافة القديمة . وربما أكون صاحياً ولكني

في غفوة ذهنية فتجري الخواطر في رأسي حين أراه قد أتى متذللاً يطلب الصفح وأنا أتأبى عليه وأتدلل

ففي النوم وفي خواطر اليقظة ينتبه العقل الباطن وينوي نياته الشريرة . ولكنها ليست كلها شريرة . فان الانسان القديم لم يكن رجل شر لا يعرف الخير بل الحيوان القديم نفسه الذي نشأنا منه لم يكن كله للشر

ولذلك فان هذا العقل الباطن يسمو بنا أحياناً في الخواطر سمواً عظيماً حين يوهمنا بأن نكون في مراكز عالية من الرياسة والعلم والرقي بل هو يعقل ذلك أحياناً في الاحلام . وذلك لأن نزعة الرقي لن تفارقنا حتى في أمراضنا بل نحن عند ما نفكر في الشر انما نرمي بذلك الى ترقية أنفسنا كما كان يفهم الانسان القديم أو الحيوان القديم معنى الرقي

وهنا يجب أن نلاحظ شيئين :

الاول : ان المشاهد أن أحلام اليقظة أي الخواطر السائبة اكثر تمكناً في الاطفال من الرجال . فقد نرى الطفل يكلم نفسه عن لعبه وألعابه على غير وعي منه ويبقى على ذلك مدة طويلة لا ينتبه فيها عقله الواعي

والثاني : اننا في أحلامنا نسير على أساليب الطفولة وتخيلات الاطفال فنتصور أننا ركبنا بقرة وطارت بنا أو اننا رأينا رجلاً في ارتفاع المأذنة أو نحو ذلك من السخافات

فما هي دلالة ذلك ؟

دلالته أن الخواطر السائبة سبقت التفكير الواعي المنظم في تاريخ

الانسان . لان الطفل يمثل الانسان القديم بأفكاره كما يمثل الحيوان بحركاته عند ما يسير على أربع . ونحن نجري على أساليب الاطفال في الاحلام لهذا السبب عينه لأن أسلوب الطفل هو أسلوب الانسان القديم . فما دام عقلنا الحديث الواعي ينـام فان عقلنا القديم ينطلق ويفكر بأساليب أسلافنا القدماء أي بأساليب أطفالنا الراهنين

فالعقل الباطن هو ذلك العقل الحيواني القديم امتزجت به ثقافة الانسان الاول وهو يجري في أساليبه على طريقة التفكير الذي نراه عند الاطفال . ونحس نحن بوجوده في الخواطر وقت اليقظة الغافية أو في الاحلام . وهو في الاحلام أقوى مما هو في الخواطر . وقد تكون مادة الحلم أو الخاطر حديثة خاصة بحياتنا المعيشية بشأن الزواج أو المنصب أو الدرس ولـكنها في الحلم تجري على أسلوب الاطفال وتسير على النسق الذي كان يجري عليه أسلافنا القدماء

ولما كنا نحن نفكر بالنفس كلها أي بجملة عقولنا وغرائزنا فان بين هذه العقول تعاوناً ، الباطن منها والواعي والقديم منها والحديث ، لمصلحة الشخص . فهي ترمي كلها الى تحقيق الغاية التي يسعى صاحبها لتحقيقها كل منها بأسلوبه الخاص . فالعقل الحديث يحـاول تحقيق غايات الشخص بالعلم والمنطق والطرق السلمية وهو يفعل ذلك على وعي أي دراية . والعقل القديم يحاول التحقيق بطرق قائمة على الأثرة والتهجم او بطرق وحشية محضة وكل ذلك بلا وعي . ولـكنهما يتعاونان . ولذلك كثيراً ما يجد العالم حلاً لمعضلة علمية في الخواطر السائبة أو في الاحلام . على أن الارادة القوية والعزم الصـادق لا يكونان إلا باتحاد العقل الواعي والعقل الباطن كما سترى بعد

قوة الغريزة الجنسية

يجب أن نصرح للقارىء بأنه كان يجب علينا أن نخص نصف الكتاب لموضوع هذا الفصل فان الغريزة الجنسية هي أهم ما يشغل العقل الباطن . ولكننا نتحامى التبسط في هذا الموضوع حياء من ذكر ألفاظ يمجها الذوق

وقد يكون اكبر ما يبعث الناس على تفادي الكلام في موضوع هذه الغريزة الجنسية شعورهم بقوتها والحاحها كما يتفادى الانسان الكلام عن الامر المخطر . فنحن في معيشتنا واختلاطنا بالناس وخاصة في وقت الشباب نتواضع على الصمت في هذا الموضوع نروح ونغدو وفي أجسامنا غريزة تتأجج ثم يدعي كل منا للآخر أنه ليس به شيء . ومنا شبان يصابون بالجنون ونساء يقعن في الهستريا وتنشأ بين البعض عادات سرية تودي بعقولهم ومع ذلك كلنا يلزم الصمت كأنه ليس هناك ما يرغب فيه أو يخشاه . وهناك من ينجح في كبت هذه الغريزة أو التسامي بها وهناك من يكتمها فتستحيل شيطاناً في جسمه فلا يخطر بباله خاطر ولا يحلم في نومه إلا بها . وقد تلبس له لبوساً تختفي فيه وعندئذ يكون الضرر والخطر

ومن الناس وخاصة الشيوخ من يعتقد أن فورة الشباب نوع من

الخلاعة التي تجلبها المدنية . وان القسوة تحسمها ومنع المخالطة بين الجنسين تزيلها . ولكن الواقع الذي تشهد به النفسلوجية الحديثة أن كتم العاطفة الجنسية كثيراً ما يئول الى اختلالات عصبية ونفسية خطيرة . ولكن هناك نوعاً من كبت العاطفة يمكن أن يتسامى بصاحبه ويرفعه وسنراه بعد

وقوة هذه العاطفة لا ترجع الى الخلاعة التي تجلبها المدنية . فان نظرة واحدة الى الاحياء تكفي لان يدرك الانسان منها مقدار عناية الطبيعة بالنسل وتهيئة الانثى لكي تلتقي بالذكر . واعداد الذكر بضروب الاغراء لكي يجذب الانثى اليه . ثم هذه الغريزة نفسها هي الاصل في اختراع الصوت (واللغة) كما هي الاصل في وجود الاسرة والحياة الاجتماعية وهي الاصل في الجمال . فالحيوان لم تنشأ له أعضاء الصوت إلا لكي يجذب الانثى اليه . ولم تنشأ له غريزة الجمال إلا اغراء للانثى بالذكر والذكر بالانثى . ومن الصوت نشأت اللغة . ومن الحب نشأت الاسرة . ومن الاسرة نشأ الاجتماع

ولهذا السبب لم يبالغ فرود إلا قليلاً حين زعم أن جميع أحلامنا تقريباً ترجع الى هذه الغريزة الجنسية . لانه لم يقصد الغريزة الغشيمة وحدها بل قصد منها أيضاً الى تطوراتها المهذبة

ونحن مع اتفاقنا وتواضعنا على الصمت والمداراة في موضوع هذه الغريزة لا نزال نرى من الحوادث ما ينبه أذهاننا الى قوتها . فهذا شاب قد اعتاد العادات السرية التي انتهت بجنونه . وهذه فتاة قد أصيبت بهستريا قد يعسر شفاؤها . وهذه جناية كبرى قد قتل فيها الزوج أو العاشق . وكل ذلك من أجل هذه الغريزة

وحدث في ١٨ اكتوبر سنة ١٩٢٧ أن فتاة قتلت سبعة أنفس وهم مجموع أعضاء أسرتها لأنهم منعوها من الزواج . وقال المكاتب في آخر الخبر : « بنت عانس قتلت أخوتها الاربعة وأختيها ووالديها لتشديدهم الرقابة عليها ولأنهم امتنعوا غير مرة من تزويجها من خاطبيها بدعوى عدم كفاءتهم لها فلم تجد بداً من أن تجعل أسرتها ضحية آمالها لتكون حرة في الامر »

فمثل هـذا الخبر يفتح عيوننا ويجعلنا نعرف قيمة هذه الغريزة وشدة الحاحها على الانسان

وللمدنية شيء من وزر هذا الشقاء لأنهـا تؤجل الزواج الى ما بعد الثلاثين أو الاربعين . مع أن هذه الغريزة على أحدها في بلادنا فيما بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين . وهذه سن يقضيها الشاب في عذاب المجاهدة وقد ينهزم في هذه المجاهدة وقد ينتصر اذا تسامى بعاطفته الى خدمة فنه . ولـكن قلما يخرج منها واحد لم يجرح ذهنه منها بجرح كبير أو صغير

فقد تجد شاباً لا يطيق الانكباب على عمله لان أفكاره تنقلب خواطر تسرح فلا يمكنه ضبطها وتسليطها على عمله . وهذه الخواطر كلها جنسية . وتجد آخر لا جلد له على العمل وذلك لان هذه الغريزة قد استحالت في العقل الباطن قوة مضغوطة ليست على وفاق مع عقله الواعي . وقد تتخذ أشكالاً غامضة لا يدري هو أنها جنسية فيزيد ارتباكه . وقد تجد رجلاً آخر عصبي المزاج الى درجة مخيفة فاذا حللت هذه العصبية ألفيتها قائمة على تناقض بين عقليه الواعي والباطن

ومن هذا القبيل أحلام الشبان والفتيات فان معظمها رموز لهذه الغريزة المضغوطة

فيجب على القارىء أن يفرض وهو يقرأ هـذا الـكتاب أن الغريزة الجنسية هي أهم عوامل النشاط في العقل الباطن وهي أهم أصل للاحلام والخواطر وربما كانت أيضاً اكبر أسباب الجنون النفسي عند الرجال والنساء . وسنقتصد جداً في ذكر الغريزة الجنسية أنفة من ذكر ألفاظ يمجها الذوق

في الكبت

ليس شيء يمر بنا وتحس به حواسنا ثم ننساه إلا بسبب . وهذا النسيان مع ذلك ليس محواً تاماً إذ يمكن استثارة ما نسيناه بالتحليل النفسي وبالاستهواء . نعني بذلك أن النسيان ليس مطلقاً وهو لو كان مطلقاً لما أمكننا أن نتذكر شيئاً قد نسيناه قبلاً

والتذكر نفسه يدلنا على طريقة النسيان. فقد يسألنا أحد عن اسم شخص نعرفه فنحاول أن نتذكره ونجهد أنفسنا في ذلك بلا طائل ثم ننسى الموضوع وقد تمر ساعات أو أيام واذا بالاسم يخطر على بالنا غير مدعو ولا مطلوب . فهو إذن قد « خطر » على بالنا . والخواطر كلها من العقل الباطن الذي لا يسيطر عليه العقل الواعي إلا وقت الانتباه واليقظة

فكل ما يمر بنا في حياتنا منذ أن نولد وتحس به حواسنا أو تفكر فيه عقولنا انما ننساه لا لانه محي من ذاكرتنا بل لانه كُبت أي منع من الظهور في العقل الواعي . فنحن في الحقيقة لا ننسى شيئاً البتة . وانما كل ما يقع لنا ، ولسنا في حاجة الى أن يكون ماثلاً لذهننا في كل وقت ، يندس في العقل الباطن ويحتبس فيه لان العقل الواعي الذي نؤدي به أعمالنا في اليقظة يكبت هذه الذكرى . وأحياناً اذا

غفل عنها في نوم أو غفوة أو مرض وكانت هذه الذكرى قوية فانها تعود الينا فنتذكر أشياء كنا نظن اننا نسيناها ومحيت من ذاكرتنا تمام المحو

وهذا الكبت يحدث لنا في كل وقت وهو أحياناً من مصلحة الشخص لأنه ليس من المفيد لنا أن نذكر كل شيء بعقلنا الواعي . فلو كان الطفل مثلاً يذكر كل المخاوف التي كانت تعترضه وهو يتعلم المشي لما استطاع بعد ذلك أن يمشي . فهو يكبت هذه المخاوف واحدة بعد اخرى وينساها ويستطيع بذلك أن يمشي . وهو لو كان يتذكر على الدوام محاولاته الاولى في تلفظ الالفاظ لما استطاع أن ينطق بلغة الكبار لأن لسانه يتذكر على الدوام الفاظ الطفولة . ولكن الواقع ان عقله الواعي يكبت هذه الذكرى عندما يتعلم النطق الجيد

والكبت طبيعي وضروري في الحيوان . وخاصة منه تلك الانواع التي تنسلخ كالضفدع حين تكون عُومة تسبح بزعانف ثم تنسلخ الى ضفدع تثبت على اليابسة . فانها لو كانت تذكر وهي على اليابسة طريقة السير وهي عُومة على الماء لاختلت أعصابها وارتبكت حركتها . فهي ما دامت عُومة تسبح بزعانفها كالسمك . فاذا انسلخت الى ضفدع كبتت فيها ذاكرة السباحة بالزعانف وصارت تسبح بسيقانها وتمشي عليها . فالكبت في هذه الحالة مفيد لها . وكذلك اليرقة التي تأكل ورق الشجر وتزحف يجب عندما تنسلخ الى فراشة أن تنسى طريقة الزحف وتطير بل يجب أن تغير مآكلها . وهي لو بقيت لها ذاكرتها الاولى لما استطاعت أن تعيش

فالكبت ضروري كما يتبين من هذين المثلين . وهو ضروري في

انتقال الطفل من الطفولة إلى الصبا ومن الصبا الى الشباب . نعني بذلك اننا يجب أن ننسى لأن النسيان من مصلحتنا . ولكن النسيان لفظة عامية يقابلها في النفسلوجية الحديثة لفظة الكبت . وعند التحليل يتبين لنا اننا لا ننسى شيئاً البتة . وانما ما نظن اننا قد نسيناه انما هو مكبوت في العقل الباطن يمكن استثارته وهو انما كبت لسبب

فقد نرى ونحن نسير في الشارع رجلا يدوسه الترام ونرى الدم واللحم الممزق ونراه في حشرجته وآلامه . فننزعج أشد الانزعاج . فلو بقيت هذه الذاكرة ماثلة أمام أعيننا ونحن نؤدي أعمالنا اليومية لما استطعنا أن نعمل شيئاً لأن الحادثة تشغل أذهاننا وتقلق أعصابنا فمن مصلحتنا أن ننسى الحادثة وقت يقظتنا . ولكن هل نسياننا لها دليل على انها محيت من أذهاننا ؟

كلا . والبرهان على ذلك انها من وقت لآخر تخطر في بالنا وتزعجنا . وأحياناً نرى الحادثة على نصها الاصلي أو مشوهة في الحلم . ففي هاتين الحالتين نعرف اننا لم ننس الحادثة وانما عقلنا الواعي كبتها لمصلحتنا حتى تنظر لمعاشنا . فاندست الذكرى في العقل الباطن الذي لا نعي به وصارت « تخطر » لنا في الخواطر وقت الغفوة أو نراها في الحلم وقت نوم العقل الواعي

وتدل التجارب على اننا بالاستهواء نستطيع أن نتذكر طفولتنا نفسها . والاستهواء حالة ينام فيها العقل الواعي . وهو شبيه بالنوم غير ان النائم في الاستهواء يمكنه أن يسمع ويتأثر بمن يخاطبه اكثر من النائم بالنوم الطبيعي ويكون المتسلط عليه ، قتتذ عقله الباطن

وقد ضربنا الامثلة على فائدة الكبت . ولكن له أيضاً أضراراً

كبيرة . فان عندنا من العواطف ما نأبى أو نخجل أن نصرح به كالغريزة الجنسية مثلاً . فقد تقوم بنا عاطفة الحب فنكبتها لانا نعيش في حال من الحضارة تمنع التصريح بها . ولكن هذه العاطفة غاية في القوة والعنف فاذا كبتناها وتناسيناها حتى ظننا اننا نسيناها تغفلتنا وطرأت علينا خواطر جامحة تمنع تفكيرنا

وقد يحدث أن نرى حادثاً مزعجاً في طفولتنا فنكبته ولكنه يستحيل الى كابوس عند ما نكبر ويتشكل بجملة أشكال فيزعجنا وقت النوم مع أننا نظن أننا قد نسيناه حتى امحى من ذهننا . ولكن الحقيقة أن العاطفة كانت شديدة فاندست في العقل الباطن وصارت تتراءى لنا بهيئة كابوس

لما كان عمري سبع سنوات رأيت رجلاً مخنوقاً عاري الجسم أزرق الوجه منتفخه . وكان قد وضع في مكان من الكنيسة منفرداً لتهيئته للغسل والكفن . وكان معي رفيق أكبر مني سناً مكر بي حتى أوصلني الى الجثة وهو ورائي بعيد عني فما شعرت إلا وانا أكاد أقع فوق الجثة . فرعبت من المنظر وتراجعت وبقيت الذكرى تخيفني أكثر من شهرين . ثم تنوسيت بمرور السنين

وصرت بعد ذلك أنام وحدي في الغرفة بل أمشي في الظلام ولا أخاف وظننت اني نسيت الحادثة بل كنت أرويها أحياناً بلا خوف . ولكن بقي ينتابني كابوس لازمني نحو عشرين سنة أو أكثر . وكان يتشكل بأشكال مختلفة فساعة أراه رجلاً ضخماً يريد أن يقتلني وأخرى أراه يحاول أن يسرقني ويقتلني . ولم يكن لديّ أو لدى أي واحد علاج يقيني في نومي منه

وأخيراً عنـد ما درست النفسلوجية الحديثة خطر في بالي أن أحلل هذا الـكابوس وأعرف مأتاه . وكانت عادتي أني بعد أن أصرخ أستيقظ منهوك القوى خائفاً . فصرت عنـد اليقظة أمثل الـكابوس كما رأيته لذهني وأستعيده وأنا ما أزال أتلمظ بالنوم السابق قبل أن ينتبه عقلي الواعي كل الانتباه . ثم جعلت أقيد في ذهني الخواطر التي تخطر لي في هذه الفترة . وما أشـد ما كان استغرابي عند ما وجدت أن الـكابوس يذكرني على الدوام بذلك الرجل المخنوق الذي رأيته قبل عشرين سنة أو أكثر . وتكرر الـكابوس وتكرر ظهور الجثة القديمة . ومن ذلك الوقت انقطع عني الـكابوس أو كان يأتي فلا أخاف ولا أصرخ منه بل أحلم به حلماً خفيفاً لا يؤذيني

والتحليل هو كما يلي :

اني عند ما رأيت الرجل المخنوق غمرتني عاطفة الخوف وبقيت مدة طويلة أي عدة أشهر تزعجني . ولـكن عقلي الواعي الذي ينشد مصلحتي يرى أن هذا الرعب المستمر يمنعني من العيشة الصالحة فهو لذلك قد كبت الذكرى . فاندست في عقلي الباطن حتى توهمت أني قد نسيت كل شيء عن هذا الرجل . ولـكن الواقع أن العاطفة كانت شديدة فهي قوة محبوسة ما دمت أنا في يقظة لا يمكنها أن تخرج الى الوعي فأشعر بها وأنا يقظ . ولـكني اذا نمت فان أول ما ينام في نفسي هو العقل الواعي لانه أحدث طبقات نفسي وأكثرها شعوراً بالتعب . ولكن العقل الباطن الذي لا يعي (والذي يحتوي على الثقافة القديمة والغرائز الحيوانية) يستيقظ . فتظهر فيـه عاطفة الرعب مصورة لي في هيئة وحش يريد أن يأكلني أو هيئة رجل يريد أن

يقتلني . وهذه التصورات هي طريقة التفكير القديمة التي كنا نفكر بها ونحن في طور الحيوان وفي بداية تاريخ الانسان . فأنا لا أرى الرجل المخنوق بصورته كما رأيتها في الاصل لان عقلي الباطن ليس مشغولا بهذه الصورة بل هو مشغول بالرعب أي بعاطفة الخوف المستكنة فيه فهو يصور الخوف كما يفهمه بطرقه القديمة في رجل يبغي هلاكي أو وحش يريد التهامي

ولكني عند ما عرفت أن هذا الكابوس هو نفسه الرجل المخنوق القديم الذي رأيته زال عني كما قلت آنفاً . وذلك لأني نبهت عقلي الباطن الى الحقيقة التي انخدع فيها . فكلما أهابت بي عاطفة الخوف تذكر هو الرجل المخنوق على حقيقته فيعرف انه جثة عاجزة فلا يخاف.

اللبيدو والطاقة المكبوتة

كيف نفكر ؟

للتفكير ثلاث درجات :

١ ـ فنحن أولا « نعرف » الشيء بحواسنا أو بذهننا

٢ ـ ثم تتكون عنه « عاطفة » ضعيفة أو قوية

٣ ـ ثم بعد ذلك تتكون الرغبة التي تتجسم في الارادة . فأنا أرى الطعام أو يخطر في بالي أولا . ثم تحدث عاطفة الجوع ثانياً . ثم ارغب في الاكل او انزع اليه ثالثاً . فأهم به وهذه هي الارادة

أو أرى ثوراً ناطحاً فهذه هي المعرفة. ثم أشعر بعاطفة الخوف ثم تقوم في نفسي رغبة الهرب فأجري

ولكن يحدث أحياناً كثيرة ان ظروفنا تمنعنا من اشباع الرغبة فأين تذهب هذه الرغبة ؟

ان هذه الرغبة قوة من قوى نفسنا اذا لم تنصرف الى ارادة اندست في العقل الباطن فتبقى عندئذ طاقة مكبوتة اي قوة كامنة تتحين الفرص للخروج والعمل

مثال ذلك أني أكون مريضاً قد منع عني الطبيب الطعام . فأنا بالطبع أجوع وتقوم في نفسي عاطفة الجوع . وتنشأ منها الرغبة

في الطعام . ولكني لا احقق هذه الرغبة . فهي عندئذ تندس في عقلي الباطن . فما دمت أنا يقظاً فان عقلي الواعي يُفهمني ضرورة الجوع بغية الشفاء ولكني اذا نمت حلمت بالطعام الشهي يبسط أمامي . وذلك لان هذه الرغبة قوة اندست في عقلي وتحينت فرصة النوم الذي طرأ على عقلي الواعي فجعلت عقلي الباطن يتخيل ألوان الطعام

فهذه القوة المكبوتة التي يكبتها العقل الواعي وقت اليقظة تندس وتكمن في العقل الباطن وتحاول تحقيق أغراضها وقت النوم بالاحلام أو وقت الغفوة الطارئة بالخواطر . فاني قد أكون صاحياً أو شبه الصاحي فأفكر في ألوان الطعام تفكيراً سائباً هو الخواطر الطارئة علينا والتي أحياناً لا نستطيع ضبطها اذا كانت العاطفة شديدة حتى تدعونا الى أن نكلم أنفسنا بصوت مسموع

وهذه القوة المكبوتة هي قوة الليبد. فالليبد هو الطاقة الانسانية التي تجد منفرجا من حبسها في الخواطر او الاحلام . ولهذا السبب يحلم الجوعان بالخبز، ويحلم الفقير بالثروة، ويحلم الشاب المراهق بالزواج وكل خواطره تقريباً تكون في تلك السن خاصة بالعاطفة الجنسية

واذا كانت العاطفة قوية جداً زادت قوة الليبد فيحدث عندئذ الجنون

وكل منا يصاب احياناً بشيء من هذا الجنون كما اذا اغتظنا من أحد الناس فالغيظ عندنا يسلك هذه المسالك الآتية :

١ – قد تستحيل عاطفة الغيظ الى الرغبة ثم الارادة فنضربه

فنستريح بذلك ولا نحتاج بعد ذلك الى التفكير فيه فلا نحلم به ولا يخطر ذكره ببالنا

٢ ـ قد لا نستطيع أن نضربه ، فتستحيل عاطفة الغيظ الى خواطر تتخيل فيها اننا نضربه أو نقتله

٣ ـ نراه في الحلم مهاناً أو مقتولا أو قد جاء ليتذلل الينا

وفي هذه الحالات الثلاث يريد عقلنا الباطن ان ينفس عن هذه العاطفة المكبوتة في نفوسنا ، فهو صامت ما دام العقل الواعي مستيقظاً ولكنه يختلس منه فترات فيبدو لنا خواطر تمثل لنا خصمنا وهو مقهور امامنا او ينتهز فرصة النوم فيمثله لنا في الاحلام مقهوراً

ولكن اذا كانت عاطفة الغيظ شديدة جداً فاننا نجد انفسنا نتكلم حتى ونحن مع الناس ولا نستطيع السكوت . وكم من رجل رأيناه يفعل ذلك وهو لا يعي بمن حوله ! فاذا زادت قوة اللبيد المحتبس صار هذا الذي يكلم نفسه بصوت منخفض يتكلم بصوت عال ، وصارت خواطره التي تطرأ على عقله فيرى فيها خصمه مقهوراً مضروباً مهاناً حقائق يؤمن بها . وهذا هو الجنون

فهناك من يجن للافلاس أو للاهانة العظمى أو للحرمان الشديد وخاصة ذلك الحرمان الناتج من كبت الغريزة الجنسية . فهذا الذي يفلس تقوم في نفسه عقيدة انه غني كبير جداً ، وهذه العقيدة تشبه الحلم . فكما ان الجائع يرى الخبز في نومه كذلك المفلس يرى انه غني في حلمه ، فاذا جن أشبه جنونه حلمه . وذلك لان كليهما من عمل العقل الباطن . فالمفلس الذي يجن يتغلب عقله الباطن على عقله الواعي لان اللبيد المحتبس قوي جداً أي ان العاطفة المكبوتة تريد

ان تنفجر فهو يسير بين الناس أشبه بالنائم يرى في يقظته ما يراه في حلمه أي انه غني جداً . وهذا الرجل الذي أهين اهانة كبرى يحلم أنه ملك ولكنه قد يزداد عنده احتباس الليبد أي القوة المكبوتة فيعتقد وهو يقظان أنه ملك لان عقله الواعي قد هزم أمام عقله الباطن

ولكن هناك حلاً آخر غير الجنون نعني به التسامي

فقد سبق أن قلنا ان طبيعة النفس البشرية هي الرقي . وهذا المفلس الذي يحسب نفسه غنياً وهذا المهان الذي يحسب نفسه ملكاً انما يريد أن يرقى كما يفهم عقله الباطن معنى الرقي وعلى مقدار ما يفهم . وقد سبق أن قلنا ان هذا العقل الباطن قديم يجري على طرق الثقافة القديمة ، فهو لا يفهم الرقي إلا في معنى الغنى أو الملوكية مثلاً

ولكن العقل الواعي أحياناً يدخل في موضوع النزاع بينه وبين العقل الباطن ويحله كلاهما بالتسامي (من السمو) كان يحاول المحروم من اشباع الغريزة الجنسية أن يصير راهباً يخدم الله او عالماً ناسكاً يرصد نفسه للعلم أو الفنون الجميلة او نحو ذلك مما سنشرحه بعد

***

وقبل أن أترك هذا الفصل يجب ان أثبت هنا اختلاف ثلاثة من أساطين النفسلوجية الحديثة في معنى الليبد . فهو في رأي فرود تلك الغريزة الجنسية التي تنشد لذتها ولا تبالي بالعرف والعادة . فاذا احتبست فهي إما أن تتسامى وإما أن تتكفىء الى طرق الاطفال وفي هذه الحالة الثانية تحدث الانحرافات والامراض . ولكن ادلر يقول ان الليبد هو النزوع الى القوة على طريقة نيتشه وان هذا النزوع اذا احتبس أحدث الامراض النفسية المألوفة

أو هو قد يحدث عكس ذلك من الجهة المقابلة بأن يجعل صاحبه نابغة

ولكن يونغ يجمع بين الرأيين فيقول بأن اللبيد هو تلك الغريزة الجنسية قد امتزجت بالنزوع الى الرقي

والثلاثة يقولون بامكان التسامي باللبيد ، أو بامكان عكس ذلك أي المرض والانحراف

وقد نظرت أنا الى اللبيد فاعتبرته طاقة في النفس ، ولم أكترث بعد ذلك لطبيعته هل هو النزوع الى القوة أم الرقي أم الحب وان كنت أرى ان الرقي هو طبيعة الانسان . ونحن لا نشعر بقوته إلا اذا احتبس في النفس بعض الاحتباس أي اذا كُبت بعض الكبت. أما اذا كان يجد منصرفاً طبيعياً له في اليقظة فتتكون منه تلك المادة التي تعمل للرقي او الانحطاط . وقد بلغ من غموض هذه اللفظة وكثرة الاختلاف فيها ان رفرز رفض بتاتاً استعمالها

السأم والهم والعصبية

من الناس من يقبل على عمله متحمساً راضياً به مؤملاً فيه النجاح ومنهم من يعمل عمله وهو سئم متراخٍ دائم التشاؤم

ومن الناس من يشكو الهم وانه يأرق في الليل منه . ثم منهم العصبي المتردد الذي يحسب لكل شيء ويخاف من كل شيء

واذا نظرنا الى هذه الحالات من وجهة النظر التي نتبعها في هذا الكتاب لم نجد لها جميعها غير علة واحدة هي النزاع بين العقل الباطن والعقل الواعي . فاذا اتفق الاثنان شعرنا بالحماسة والاقبال على العمل ولكنهما اذا اختلفا شعرنا بالسأم والهم والعصبية

ولكي نوضح ذلك يجب ان نفرض انه وضع على الارض لوح طويل من الخشب وطلب منا أن نمشي عليه . فكلنا عندئذ يمشي عليه بدون أي عناء ولا يخشى السقوط منه . ولماذا نخشى السقوط ؟ فانه هو نفسه على الارض فلو سقطنا لما جرى لنا شيء من السقوط

ولكن هب أن هذا اللوح نفسه قد وضع على ارتفاع ٤٠ متراً بين جدارين وطلب منا بعد ذلك أن نمشي عليه . فهنا نصاب بعصبية منشأها النزاع بين العقل الباطن والعقل الواعي . فبعقلي الواعي الحديث أجد أنه ليس هناك ما يدعو الى الخوف وان المنطق يقضي

بأنه ما دام اللوح هو نفسه الذي مشيت عليه وهو على الارض وما دامت رجلاي كما هما صحيحتين فاني يمكنني ان أمشي عليه وهو بين الجدارين ولكني في هذا الوقت أتذكر الارتفاع وقدره ٤٠ متراً فأحسب للسقوط . ويندس هذا الخوف في عقلي الباطن ، فأقف موقف التردد . وهذا التردد نفسه هو الحال العصبية التي أشعر بها وما دام عقلي الباطن يفكر في السقوط فالاغلب اني أسقط بالفعل . وذلك لان كل أعمالنا ترجع الى الاعصاب بما فيها المخ . فاذا فكرنا في السقوط أو بالاحرى اذا خطر السقوط في بالنا فان أعصابنا تحرك أعضاءنا في ناحية السقوط لانها توحي الينا هذا الخاطر

فهذا مثال محسوس على هذه العصبية التي تصيبنا . وشبيه بها تلك العصبية التي نشعر بها في الامتحان حين تكمن عاطفة الخوف في العقل الباطن فترتبكنا وتنسينا ما حفظناه . أو تلك العصبية التي نشعر بها حين نقابل رئيساً محترماً أو حين نكون في حضرة قاض محقق أمام خصومنا . وأحياناً تشتد بنا العصبية لان اللبيد المحتبس أي العاطفة المكبوتة في العقل الباطن تقوى وتعنف فلا تجد منفرجاً فتنفس عنها على غير وعي منا بحركة في القدم أو اليد أو الشفة لان هذه الحركة تحتاج الى طاقة تصرف اليها فتخفف الضغط للعقل الباطن . وقلما تجد رجلا قد اشتد الجدال معه وغضب منه وحبس غضبه الا وهو يحرك أحد أعضائه حركة غير واعية قد تكون أحياناً في عضلات الوجه أو اللعب بسلسلة الساعة أو تحريك الساق أو القدم . وكل عصبية دليل على ان في العقل الباطن عاطفة مكبوتة فاذا توجهنا لعمل ما لم نتوجه بكل نفسنا اليه فتكثر أخطاؤنا . ويبدو هذا

الخطأ لنا كأنه سهو طارىء بلا علة . ولكن الواقع أنه ليس في جميع أعمالنا عمل واحد نعمله بلا سبب

وهاك مثالا آخر للعصبية : فقد يقوم في نفسي أن أذهب لزيارة صديق وأنظر للوقت فأجد أنه ما يزال بيني وبين الميعاد نحو ساعة فأقعد وأنكب على عملي منتظراً نهاية الساعة . ولكن عاطفة الشوق الى الزيارة قد اندست في عقلي الباطن فهي تغافلني من وقت لآخر وتخطر في بالي وتحدث لي أغلاطاً في الكتابة منشؤها الرغبة في العجلة . وأخيراً ما يزال يطمو بي العقل الباطن حتى يغمرني ويبرر لي القيام قبل الميعاد وأكبر ما يبرر ذلك في نظري ان أغلاطي كثيرة واني عصبي وعندئذ تصير النتيجة سبباً

والعقل الواعي ما دام تام اليقظة فانه يكبت العقل الباطن ولكنه يغفل احياناً من الاعياء مثلا فتهجم علينا الخواطر من العقل الباطن فتحدث لنا هذه العصبية . ولكن اذا كثرت الخواطر علينا صرنا نسأم العمل وصرنا نشعر بالهمّ الذي يحول دون الانكباب على العمل

فهذا الهم يجعلنا وقت العمل عصبيين لان عقلنا الباطن ليس على وفاق معنا . فهو يريد ان ينفس عن العاطفة المكبوتة وما يزال يختلس أوقات الغفلة من العقل الواعي فيُخطر لنا الخواطر الخاصة بهذه العاطفة . واذا انكفأنا الى فراشنا وحدثت الغفوة الاولى السابقة للنوم أخذ العقل الباطن يخيل لنا الخيالات المختلفة عن هذه العاطفة فنأرق ، ونشعر عندئذ ان الهم قد تملكنا حتى صرنا لا ننام . فاذا اتفق أننا نمنا بعد عناء الارق اشتد نشاط العقل الباطن فيأخذ في أحلام مروّعة قد تبلغ من الشدة أن توقظنا ، وعندئذ يشمل

الاعياء الجسم كله فتنحط الصحة ويسير الشخص من سيء الى اسوأ

وهذا هو السبب في انك تجد الرجل الناجح يحب عمله وربما كان يهواه وهو صغير فهو يقبل عليه كما يقبل على اللعب فيعمل بحرارة ولذة . وذلك لان هذا الحب يجعل العقل الباطن على وفاق مع العقل الواعي فلا يحدث بينهما هـذا الاختلاف الذي يحدث العصبية والتردد

ولـكن ليس كل منا قادراً على أن يجعل مهواته التي يهواها عمله الذي يعمله ويعيش منه . وعلى ذلك يمكن كل انسان أن يعرف هوى نفسه ويسلم لعقله الباطن بشيء من نشاطه حتى يخفف ضغطه للعقل الواعي . وقد يكون ذلك بممارسة الرياضة أو الرسم أو القراءة أو التجارة أو نحو ذلك . فاذا خصص كل انسان برهة من يومه لـكي يعمل عملا يهواه في لباب نفسه فان العصبية والهموم تقل ان لم تنتف بتة

ولـكن هناك هموماً لا بد من حدوثها ولا مفر منها ، وخير علاج لها هو الفصل فيها بسرعة ، ومتى فُصل فيها فصلا حاسماً انتهى منها العقل الباطن. لانه انما يعمل اكثر عمله في المعضلات الراهنة فاذا كان شقاق بين زوجين لا ينقطع وجب الفصل فيه والانتهاء منه واذا كان خصام مع أحـد الناس يتمادى ويطول وجب البت فيـه ولو بخسارة ، فان الذي يقلق كثيراً هو الحاضر الراهن ، أما الماضي فان الظروف الجديدة تعفّيه والنجاح الجديد يزيل أثره

وقد ينفع هنا الاستهواء الذاتي في إزالة الهم وذلك بأن يوحي الشخص لنفسه قبيل النوم معنى النوم وانه يوشك ان يغمر الجسم

فانه ما من لفظة نسمعها حتى تؤثر فينا وما من خاطر يمر برءوسنا حتى يترك أثره فيها . فكما ان خاطر السقوط يجعلنا نسقط اذا كنا نمشي على جسر دقيق عال كذلك كلمة « السقوط » نسمعها من أحد الناس تخطر لنا هذا الخاطر وتهيء أعضاءنا للسقوط بالفعل. وكذلك كلمة النجاح تخطر لنا النجاح ، فاذا كرر المؤرق عبارة توهمه النوم مثل قوله « سأنام الآن » وقالها وهو مسترخي الاعضاء في غفوة مصطنعة لم يلبث أن ينام بعد تكرارها نحو عشرين مرة يعدها وهو لا يحرك عضواً من أعضائه . واذا لم تنجح التجربة في الليلة الاولى فالاغلب أنها تنجح في الليالي التالية

الاحلام

لابد ان قارىء الفصول الماضية قد أدرك نظر النفسلوجيـة الحديثـة للاحلام وللعقل الباطن ونشاطه مدة النوم أو الغفوة . ولـكن قليلا من الاعادة والتلخيص يهيء ذهن القارىء لفهم الاحلام

فالنفسلوجية هي علم النفس . وهي تقول اننا نفكر بنفسـنا . وهذه النفس مؤلفة من عقلين هما :

١ ـ العقل القديم وهو ما ورثناه من أسلافنا وهو عقل الشهوات والنزوات التي ترمي الى اللذة والسرور وهو غير واع ويجري في أساليبه على طرق الثقافة القديمة حين بدأ الانسان يدخل في طور الانسانية ويفهم السيادة والملوكية والامتلاك

٢ ـ العقل الحديث الواعي الذي نعرف به الامس والغد وندبر به ونفكر . وفيه بذور المنطق العلمي وهو واع أي نعي بأعماله أو قل هو عقل اليقظة

وقد اصطلحنا على أن نسمي الاول العقل الباطن أي الذي يعمل أعماله على غير وعي منا في الخواطر التي يمكن ان تسمى أحلام اليقظة وفي الاحلام أي وقت النوم

والنوم يلحق بالعقل الواعي وحده . وذلك لانه عقل حديث

ولحداثته في أجسامنا لم يتأصل فهو كالشجرة الحديثة العهد بالغرس اذا هبت الريح زعزعتها في حين ان الاشجار القديمة لا تتزعزع بالعواصف . فالكلال يعتريه بسرعة . ولذلك فهو أول ما ينام وأول ما يُجن وأول ما تصيبه الخمر

وليس معنى هذا ان العقل الباطن لا ينام البتة ولا يجن ولا يسكر . فاننا نعرف اننا اذا كنا في حاجة شديدة الى النوم وقد أخذ منا الكلال والاعياء فاننا ننام نوماً « عميقاً » أي اننا لا نحلم أي ان كلا عقلينا قد نام لشدة الاعياء الذي شملهما كليهما . وهـذا شبيه بالجنون حين يشتد فيأكل المجنون التراب أو الطين لان عقله الغريزي الذي كان يميز به الطعام قد جُن أيضاً . بل في تناول الخمر نشعر بدرجات الجنون تصيب طبقات عقولنا الواحدة بعد الآخرى حتى يختل فينا العقل الغريزي . ولـكنه مع ذلك آخر ما يسكر ويختل

ولـكن لا يتفق لنا ذلك إلا قليلاً . وأغلب حياتنا تقضى في نوم عادي أي ان الذي ينام فينا هو العقل الواعي فقط . بل أحياناً يكون الاعياء منبهاً للعقل الباطن فنرى الاحلام تتوارد كثيراً

وقد قلنا ان العقل الباطن يبقى مكبوتاً مدة اليقظة لان العقل الواعي يكبته ويمنعه من الظهور . فاذا نشأت فينا وقت اليقظة عاطفة شوق أو جوع أو غضب أو كرامة أو طمع وكبتها عقلنا الواعي لان الحضارة لا تؤاتينا على أن نترجم هذه العاطفة الى رغبـة ثم ارادة فعمل أو أن ظروفنا الخصوصية لا تساعدنا على ذلك فان هذه العاطفة تندس في العقل الباطن وتبقى قوة مضغوطة اذا نمنا او غفونا ظهرت بمظهر الحلم او الخاطر

وما دام العقل الباطن هو الذي يُظهرها لنا فهو يظهرها على أسلوبه القديم . فنحن في النوم ننتقل من انسان القرن العشرين المهذب المتحضر الى انسان الثقافة القديمة قبل ٥٠٠٠ سنة أو الى حالتنا البهيمية السابقة قبل عشرات الالوف من السنين . ولما كان الطفل يمثل الانسان بل الحيوان القديم كما هو واضح من أنه يمشي على أربع ويغضب كثيراً ويرعب كثيراً فان الاحلام تجري على أسلوب الطفولة أي الاسلوب الذي كان يسلكه الانسان في العصور القديمة

وقد رأينا أن العاطفة المكبوتة أي اللبيد المحتبس اذا اندست في العقل الباطن حاول هذا أن يفرّج عنها بالخواطر . فالجائع الذي كبت عاطفة الجوع تخطر في باله ألوان الطعام وهو في غفوة اليقظة أو يرى الطعام ويأكله في الحلم

فنرى من هذا المثال أن الحلم هو تحقيق رغبة قامت في النفس ولم تحقق في اليقظة ، ولكن ليست كل الاحلام كذلك

فمعظم الاحلام هي في الواقع صراع يحاول فيه الشخص أن يحقق رغبته فان نجح فذاك. والا فقد يستيقظ وهو ما يزال في صراع وكل ذلك يجري بأسلوب النفس القديمة أي بذلك العقل الباطن الذي لا يعرف الطرق الحديثة لحل المعضلات التي تعترضنا

فالجائع الذي حرم من الطعام قد : (١) يرى الخبز ويأكله في الحلم فيحقق بذلك رغبته . وقد : (٢) يرى الخبز في الحلم ويحاول ان يأكله فلا يقدر ، وهنا صراع بين الشهوة للطعام والامتناع منه

وذلك لان العقل الباطن كما اندست فيه الشهوة للطعام كذلك

اندست فيه الرغبة في الامتناع عنه لمصلحة الشخص حتى يشفى من المرض الذي يصوم من أجله . فالعقل الباطن يرغب في بلوغ مصلحتنا على أسلوب قديم وقد يستطيع أحياناً أن يبلغ حلاً موافقاً

وهذا هو علة خروجنا من الحلم بحيرة نقف عندها لا نعرف وجه الحل فيها للمعضلة التي حاول العقل الباطن أن يحلها . فهذا العقل يرغب في نجاحنا فهو يخيل لنا النجاح بتحقيق الرغبة ثم يرى الصعوبة في التحقيق فيقف حائراً

وهنا يجب أن نلاحظ :

١ً ــ انه اذا كان النوم خفيفاً فاننا نشعر بالصراع في الحلم والحيرة وعدم تحقيق الرغبة

٢ً ــ واذا كان النوم تاماً (أي غير خفيف) شعرنا بتحقيق الرغبة

وعلة ذلك اننا في حالة النوم الخفيف يتصل العقل الواعي بالعقل الباطن فلا يشطح العقل الباطن في أسلوبه القديم ويحقق كل رغبة فيقتل الخصم ويركب البقرة . فان العقل الواعي لخفة النوم ينبهه الى سخافة ذلك فتحدث الحيرة والصراع بين تحقيق الرغبة وعدم تحقيقها

اما اذا كان النوم تاماً فان العقل الواعي يكون نائماً وعندئذ يحقق العقل الباطن رغبته كما يشاء على أي طرق قديمة شاء

وهذا الصراع يبدو لنا على أوضحه في الكابوس . فانه من الواضح أن الكابوس لا يحقق شهوة من شهواتنا. وهو نقيض للخبز الذي يراه الجائع ويأكله في النوم ، فكيف نفسر الكابوس ؟

قد يحدث أن تقع بي حادثة مفزعة جداً ولكني أنجو منها ، فبعقلي الواعي اعرف اني قد نجوت وأكبت عاطفة الرعب التي لحقتني

والتي لا أذكرها حتى يخفق قلبي ويذهل عقلي . ولكني أكبت هذه العاطفة . وكل عاطفة لم تترجم الى عمل انما هي قوة تندس في العقل الباطن

فهذا الرعب الذي يدركني في اليقظة من وقت لآخر فيخفق قلبي له ويذهل عقلي يدركني في النوم عن سبيل العقل الباطن كابوساً أي رعباً قديماً كما كان يلحق آبائي منذ نحو مائة الف سنة . فمعنى الخوف أتخيله في سقف سينقض عليَّ أو ترام سيدوسني أو وحش سيفترسني . فأحاول أن أجري فلا أقدر

ولكن لماذا لا أقدر ؟

لان الانسان القديم الذي يجري عقلي الباطن على طرقه كان يستجيب للخوف في الغابة بالسكون التام كما يفعل بعض الحيوان الآن كالثعلب . لان هذا السكون كان طريقاً من طرق النجاة . فاذا أغار وحش على جماعة من الناس وانزوى واحد منهم وسكنت جميع حركاته بحيث لا يقدر هو نفسه على الصراخ أو الحركة لاستطاع بذلك أن ينجو من الوحش الذي قد لا يلتفت اليه ولا يعرف مكانه . أما اذا تحرك أو صرخ فانه يلتفت اليه فيدركه ويقتله

فهذا الجمود الذي نجده في الكابوس هو طريقة العقل الباطن في الاستجابة للرعب . لان طريقة العقل الباطن هي طريقة الاسلاف القدماء . ولكن عندما نقترب من اليقظة يحدث صراع بين العقل الواعي الذي يوشك ان يستيقظ والعقل الباطن . ولذلك نصرخ ثم نستيقظ تماماً . فالصراخ يأتي في الآخر عندما تقترب اليقظة .

وهذا ينساق مع كلامنا من أن الحلم يكون في النوم الخفيف صراعاً وفي النوم التام تحقيق رغبة

بقي ان نقول ان الكابوس يدل على أن الخوف كان عند آبائنا أشد مما هو عندنا وانه كان رعباً تجمد منه أعضاؤهم . ثم خف في أيامنا . ولعله صائر الى المحو التام من طبائعنا بحيث ان الخلف القادم سوف لا يخاف البتة من أي شيء وذلك حين يسيطر العقل الواعي سيطرة تامة على الجسم

الرموز في الاحلام

منذ شرع الناس يؤلون الاحلام عرفوا ان في الحلم رموزاً ومنذ شرع الانسان يؤلف اللغات اعتمد على الرموز في تأليف اللفظة فعرف المجاز والاستعارة وهما من الرموز وهما قوام اللغات كلها ولذلك فانا يمكننا ان نفسر الرموز التي نجدها في الاحلام برموز اللغات أي بمجازاتها واستعاراتها . وقد استطاع فرود ان يطابق بين رموز الاحلام وبين لغة المصريين القدماء

وفي هذا الفصل وفيما يليه سنعالج عدة احلام وسنكثر منها لكي يألف القارىء طريقة النظر للحلم . وهي تنحصر في ان العقل الباطن ينظر للدنيا بواسطة الحلم نظر القدماء ويسير على ثقافتهم وأحياناً يرد الى ما قبل ذلك من ثقافة الغابة ويجري في كل ذلك على أسلوب طفلي

ومما يجب التنبيه اليه ان الحلم لا ينبىء بالمستقبل وأنما يعبر عن هموم صاحبه وقد يجهل صاحبه نفسه هذه الهموم . فقد تقوم في نفوسنا عواطف بشأن الخوف او الجوع أو الحب أو الغلبة فنكبت هذه العواطف ونحن في وعينا وقد ننساها تماماً ولكنها قد اندست في العقل الباطن فهي تظهر في الاحلام باشكال مختلفة بعد مضي السنوات على قيام العاطفة في النفس

ومما يلاحظ في الاحلام ان العقل الباطن يعبر فيها عن المعاني المجردة بأشياء مجسمة فنحن لا نرى في الحلم الطول أو الجمال ولكننا نرى رجلاً طويلا أو امرأة جميلة نعني ان العقل الباطن يرمز الى المعنى المجرد بالشيء المجسم . وهذا يتسق وما نقوله من أن العقل الباطن يجري على أساليب التفكير القديمة أو أساليب الطفولة

* * *

ح . . . شاب في نحو الثلاثين مضى عليه نحو سبع سنوات وهو يحلم هذا الحلم :

يرى أنه يذهب الى المحطة ويشتري تذكرة القطار ثم يقصد الى القطار ويحاول ان يدركه فلا يمكنه لانه يقوم ويسافر قبل ادراكه

وهذا الحلم يتكرر . وأنا أعرف ظروفه فيسهل عليّ الحل بدون أن أسأله كثيراً . فهو يتطلع الى الرقي ولكنه لا يثق بنفسه . وقد رسخت في عقله الباطن فكرة العجز حتى صار لا يؤمل بأنه سيحقق أغراضه في النجاح . وعقله الباطن يرمز له عن فشله بأن القطار يفوته على الدوام

ومثل ح . . . يحتاج لكي تشفى نفسه من هذا الوهم الى استهواء والى ان يلقن نفسه قبيل النوم بانه ناجح في الحياة . وهذا ما قلته له

* * *

ر . . . شاب في العشرين تتغلب خواطره على وعيه وقت اليقظة وهو يحلم حلماً يتكرر منذ سنوات . وهو أنه يرى نفسه يطير فوق النيل

هذا الحلم لي بشأن أحد اصدقائي يدعى س . . .

حلمت اني رأيته قد طرد زوجته وكانت طويلة وتزوج اخرى قصيرة فقصدت اليه ألومه وأبين له خطأه فنحاني بيده وقال لي ان هذا ليس شغلي

هذا هو الحلم . وطريقتي أنا في تفسير احلامي هي الطريقة التي ينصح بها رفرز. وهو اني عند اليقظة أو بوادي اليقظة أفكر في الحلم وأقيد الخواطر الواردة بشأنه . وبهذه الطريقة تمكنت من التفسير الآتي :

في النهار أي قبل المساء الذي حدث فيه الحلم كنت عند صديقي س . . . فرأيته يخرج كاتبه وهو رجل طويل كنت آنس بحديثه ويجيء بكاتب قصير بدلاً منه . ولم يرقني هذا العمل وأخبرته بذلك

ولكن لماذا رمز العقل الباطن بالزوجة الى الكاتب ؟

لانه يجري على الطريقة القديمة في اعتبار الزوجة خادما في البيت يمكن طردها كما يمكن طرد الكاتب المستخدم

* * *

هذا الحلم التالي لي :

رأيتني في طيارة عمومية تسوقها امرأة وفيها امرأة اخرى تقتضي من الركاب ثمن التذاكر وتعطيها اياهم . والطيارة مستطيلة وفيها مقاعد على الجانبين . فلما قعدت لاحظت ان أحد الداخلين يحمل مجلة « . . . » في يده. ثم طارت الطيارة وكانت في طيرانها ترتفع كأنها في خط عمودي فدب في قلبي الخوف وأمسكت بمسند المقعد الذي أمامي ووضعت رأسي بين يدي وأنا خائف . ثم صحت بصوت

مرتعش وأنا لا أرفع رأسي من الخوف : انزلوا بقى

وكان الذي في خلفي وهو الذي يحمل مجلة « . . . » يضحك مني ضحكاً خافتاً وسمعتني السيدة التي تجمع التذاكر فقالت للسيدة التي تسوق الطيارة : بيقول انزلوا بقى

وهذا الحلم يحتاج الى شرح طويل ويحتاج الى ان أكاشف القارىء عن نفسي فانني احرر مجلة « . . . » وأعنى بعض العناية بالمقالة الافتتاحية فأحاول ان أسمو فيها الى الافكار والخواطر العالية وكثيراً ما ذكرت فيها التقدم مقروناً الى فكرة تقدم المرأة وسياقتها للطيارات وادارتها للاعمال الكبيرة وكثيراً أيضاً ما ذكرت فيها الطيران وأنه رمز للحضارة الراقية. فاقترنت فكرة الرقي والتقدم في عقلي الباطن بفكرة الطيران وتقدم المرأة

هذا من جهة . ومن جهة أخرى قام في نفسي صراع بشأن تحرير المجلة . فنفسي تسمو الى أن أجعلها مجلة علمية جدية وهذا في نظري معنى الرقي . ولكني في اليوم الذي حلمت في مسائه هذا الحلم كنت أجادل أحد الصحفيين بشأن المجلات وما يجب أن تكون لكي تروج فاضطررت الى الاذعان لرأيه وهو ان المجلة الجدية العلمية لا تروج . وان الجمهور يحتاج الى مادة خفيفة

ومع اذعاني فقد كان في نفسي صراع بين شيئين :

١ ـ ان تكون المجلة علمية جدية راقية ولكن قليلة الربح

٢ ـ ان تكون خفيفة المادة على قدر الجمهور ولكن كثيرة الربح

فجاء عقلي الباطن يمثل لي هذا الصراع في تلك الليلة . فجعل الطيارة والمرأة التي تسوقها رمزاً للرقي . ثم جعلني لا أطيق هذا

الرقي . وجاء بواحد من خلفي يحمل مجلة « . . . » ويضحك مني . والرقي المعنوي الذي أقصده جعله عقلي الباطن رقياً محسوساً بارتفاع الطيارة كما يفهم الطفل معنى الرقي

* * *

ي . . . يرى هذا الحلم خاصاً بصديقه ح . . .

يرى أن قريباً لصديقه ح . . . يركب أتوسيكلاً ويجري به في سرعة فائقة . ثم يلتقي بصديقه ح . . . فيحمله على الاتوسيكل ويجري به

هذا هو الحلم وهاك تفسيره :

ي . . . وح . . . معلمان لا يربحان كثيراً . وكل منهما ينظر الى قريب ح . . . باعتباره رجلاً ناجحاً في الحياة . وكان ح . . . يؤمل أن يساعده قريبه هذا ويعتقد ي . . . أنه يجب عليه أن يساعده

فالنجاح رمز عنه العقل الباطن بالسرعة لانها في نظره تدل على النشاط والحياة . والاتوسيكل رمز للسرعة . فقريب ح . . . يجري بالاتوسيكل ويحمل معه ح . . . أي أنه يعبر عن رغبة صديقه في أن يساعده

فأما ان السرعة تدل على الحياة فهذا واضح في جملة لغات . ففي الاغريقية القديمة تشتق اللفظتان من أصل واحد

* * *

أ . . . طفل في الثامنة من عمره يحلم ما يأتي :

يحلم أن في يده قرشاً يوشك أن يضيع منه فهو يقبض عليه بشدة ولكنه يستيقظ فلا يجده

ويحلم مرة أخرى أنه يتردى من مكان شاهق فلا يزال يهوي حتى يكاد يصطدم ويموت ولكنه يستيقظ قبل ذلك

ويحلم أن البيت ينخسف به أرضاً وسقفاً وبناء ويهوي نحو الارض

فهذه أحلام كنا كلنا نحلمها ونحن صغار ، وليس فيها رموز فانها صريحة والاول منها يدل على أكبر هموم الطفل وهو القرش الذي سيشتري به الحلوى ، وكثيراً ما يطلبه في اليقظة فلا يجده وكما يجد الجائع الخبز في النوم كذلك يجد الطفل هذا القرش في يده وهو نائم

ولكنه في الحلمين الآخرين يعود بنا الى الثقافة القديمة الى أيام الغابة حين كنا نفر من الحيوان الى أعلى الغصون في الاشجار ونتعلق بها . فيكون همنا في ذلك الوقت ألا نسقط منها . وتنشأ فينا عاطفة الخوف من السقوط فتتمثل لنا سقوطاً حقيقياً في أحلامنا . ثم هذا البيت الذي يوشك أن ينخسف هو أيضاً عاطفة الخوف قد تمثلت في سقوط الشجرة التي كنا نتعلق بها من ريح أو عاصفة

والطفل اذكر لثقافة الغابة من الشاب . ولذلك فلست تجد شاباً أو رجلاً يحلم هذين الحلمين لان الطفل أقرب وأكثر تمثيلاً للطور الحيواني من الشاب . بل هو يمثله في السنتين الاوليين في يقظته حين يمشي على أربع

* * *

ص . . . يحلم هذا الحلم :

يرى صديقين أخوين له أحدهما ميت أو يشبه الميت على جنازة

محمولة ووراءه اخوه يبكيه . ويقول هذا الأخ لص . . . ان أخاه لم يمت ولكن نسراً فقأ عينه

فيجيب ص . . . اجابة قبيحة إذ يقول : يا ليته قتله وأجهز عليه

هذا هو الحلم وهاك تفسيره :

ان هذين الاخوين صديقان لص . . . والكل طلبة في كلية الطب . ولكن هذا الميت يوشك أن يتقدم للامتحان النهائي . أما أخوه الذي يبكيه فطالب بعيد عن الامتحان النهائي

ولكن هذين الاخوين غير مقصودين بالذات في الحلم . وانما هما يقومان مقام اثنين آخرين طالبين من أولاد عم ص . . . فهما في الحقيقة رمز لهما . والمشابهة بينهما تكاد تكون تامة فان أحدهما يوشك أن يتقدم للامتحان النهائي والآخر ما يزال بعيداً عن هذا الامتحان في الفرقة الاولى

والذي ابتعث هذا الحلم أن ص . . . دخله شك في أن ابن عمه سينجح في الامتحان . فرمز الى السقوط بالموت

ولكن أخاه لا يرى أن السقوط في الامتحان النهائي على خطورته وفداحته موتاً تاماً بل هو فقء عين فقط

فيرد ص . . . ويقول ان الموت أحسن . . . أي أحسن من السقوط في الامتحان النهائي

ولكن لماذا دخل النسر في هذا الموت ؟

لما كان ص ... صغيراً كانت امه تحكي له قصة عن قريب له قصد الى بيروت والتحق بكلية الطب فمات هناك . وشاع وقتئذ ان نسراً قتله على قمة جبل لبنان . والاشاعة سخيفة بالطبع . ولكنها للجهل

الفاشي في عائلاتنا كانت تحكى بهذا الاسلوب للاطفال وتحكى لص...
وكون النسر يقتل انساناً من الاشياء التي يفهمها العقل الباطن وتتفق وطريقته ولذلك فص ... يرى النسر الذي سمع في طفولته أنه قتل قريباً له كان يطلب الطب في الحلم ويرمز بالموت الى السقوط. حتى ان ابن عمه الآخر عند ما ينبهه الى ان السقوط فقء عين فقط يرد عليه هذا غاضباً بأنه لو كان قد مات لـكان هذا أحسن وذلك لانه كان يحب أن يرى ابن عمه ناجحاً

ففي الحلم جملة أشياء :

١ ـ رمز للسقوط في الامتحان بالموت أو بفقء العين

٢ ـ جرى على أسلوب الطفولة في ان النسور تقتل الناس وربما كان هذا يتفق والثقافة القديمة للانسان

ولـكن في الحلم شيئاً آخر وهو « النقل » وذلك ان ص . . . لم ير موضوع حلمه بالذات بل نقل الموضوع الى اخوين آخرين. وهذا كثير في الاحلام وهو ضرب من الرمز أيضاً

حلم الانتحار

هذا الحلم التالي سأنقله كما كتبه صاحبه بنفسه وقدمه للدكتور رفرز. وصاحب الحلم نفسه طبيب كان يعمل في الحرب وراء الخنادق. وحدث ان جاءه جندي جريح وكانت جروحه غاية في الفظاعة ولم تمض عليه مدة طويلة حتى مات بين يديه وهو يصرخ ويئن من الالم. ولم يطق الطبيب المسكين هذا المنظر فصار يحلم أحلاما مفزعة انتهت أولا بأنه كره الطب وممارسته وانتهت ثانياً بأنه فكر في الانتحار. وكان متزوجاً بامرأة من كندا وله أولاد منها فكان اذا خاطبهم في شأن تركه للطب منعوه لانهم يعرفون أنه يعيش من هذه الحرفة وهم بالطبع لا يعرفون ما في سريرة نفسه لان من يفكر في الانتحار قلما يبوح بسره

والآن ننظر في الحلم كما كتبه هو للدكتور رفرز:

أنا قاعد على مقعد أمامي في دار للتمثيل. وكان عليَّ أن ألقي خطبة عنوانها « الكفاح الحاضر » فشعرت ان أعصابي تتهيج لاني لم أكن مستقراً على رأي في هذا الموضوع إذ كان لي رأيان متناقضان وكنت انت على المسرح حينما دعيت أنا للخطابة وصعدت الى المسرح وكنت أنظر في الجمع فأرى ان كل من أعرفهم أو عرفتهم كانوا بين

هذا الجمع . فتشجعت وقلت :

« أيتها السيدات . أيها السادة . اني أريد ان أخطبكم بشأن الكفاح الحاضر »

ولكني ما كدت أبدأ خطبتي حتى رأيت ان مقعدي الذي تركته بين الجمع حين صعدت الى المسرح قد قعد فيه رجل لم أره قبل ذلك . وشعرت بضرورة توجيه خطبتي الى هذا الرجل بالذات وكان يبدو لي غريباً ولكن مع ذلك كان فيه شيء يُشعرني كأني أعرفه . وكان أحمر الوجه والشعر والعينين . ولكن كانت حدقة عينيه زرقاء قاسية في حين ان شعره كان يتوهج كالذهب

وعدت الى خطبتي وقلت : « يجب ان نقاتل حتى آخر رجل منا . وخير لنا ان نموت من أن نفقد رجولتنا واستقلالنا ونصير عبيداً لشعب اجنبي »

ولما قلت هذا رأيت الرجل القاعد في مقعدي قد تولاه حزن عميق . ومع انه كان موافقاً لاقوالي فاني سمعت حركة في الجمع تدل على المخالفة ولاحظت عندئذ ان للدار بابين قد وقف على كل منهما رجل . وكان الباب الذي على يساري قد وقف عليه رجل من كندا يشبه والد زوجتي والباب الذي على يميني قد وقف عليه رجل يشبه الدكتور س . . . وعليه السترة الخاصة بفحص الجثث . ثم أخذت في خطبتي فأشرت الى ان كل شيء يتوقف على استعمالنا قوانا

وهنا رأيت الرجل الذي في مقعدي قد هتف لي وأبرقت عيناه

وهنا صاح به الرجل الكندي الموكل بالباب الايسر « اسكت أنت هناك . اسكت والا جئت لك » ولوح في وجهه بالعصا .

ولاحظت عندئذ أن حول هـذه العصا ثعباناً يزحف عليها ويهدد الرجل الذي في مقعدي . فامتلأت رعباً ولاحظت ان الرجـل الذي في مقعدي قد تغير . فانه عنـد ما نظر الى الرجل الـكندي أظلمت عيناه واكتسى وجهه بعلائم الالم حتى كاد يكون رجلاً آخر وحتى ان شعره اسود وزال من وجهه البياض . وتأثرت من منظره حتى نقصت ثقتي . ثم قلت :

« اني أعرف أننا قد تألمنا وأننا لا نزال نتألم ونقاسي » وهنا رأيت الرجل الذي في مقعدي قد أظلم وجهه وأنَّ أنيناً عالياً

وعدت الى خطبتي فقلت : « ما أعظم الراحة التي سيعيدها الينا السلام » وهنا بدأ على وجه الرجل الذي في مقعدي ألم فظيع حتى اني شعرت أنه من الرحمة ان أقتله . وكان الدكتور س . . . الذي بالباب الايمن قد قرأ نيتي فانه ابتسم لي . ولـكن الرجل الـكندي الذي بالباب الايسر وضع العصا وبها الثعبان على الارض . ثم رفع كورسيه وقال : « هذا كورسيه أشد به وسطه »

وعندئذ رأيتك أنت قد دخلت وصحت : « النظام النظام . دع الرجل . استمر يا دكتور في خطبتك . الرجل مريض . مريض جداً »

فعدت الى كلامي واخبرت الحضور بانه على الرغم من آلامنا العظيمة يجب ان نستمر في الحرب وقلت : « يجب ألا نسلم يجب ألا نخضع » ورأيت الذي في مقعدي قد تغير ثانياً . فرأيته كأن قامته قد ازدادت والتمعت عيناه كأن الشرر يقدح منهما وعاد شعره ذهبياً وصاح يهتف لي . ولـكن هتافه غاظ الرجل الـكندي

الذي رفع العصا والثعبان يتلوى حولها وصاح به قائلاً « سأذيقه طعم هذا » . وهنا تضاءل الرجل الذي في مقعدي ثانياً وتكمش . ورأيته يتأ لم آلاماً فظيعة لم أستطع ان أتحمل رؤيتها وبدت لي آلامه من عينيه حتى شعرت اني يجب ان أقتله . وهنا ابتسم لي الدكتور س . . . موافقاً لي على قتله وقال : « هـذه هي الطريق للائكة السلام » ثم تدخلت أنت وقلت ان الرجل مريض جـداً . فقلت أنا : « سأريحه من شقائه » وتناولت مسدساً كان على المنضدة وقلت : « انه لن يحس بالموت ولن يراق منه دم وسيقف تنفسه لحظته »

فقلت أنت لي : « لا تفعل . الرجل مريض جـداً ولـكنه سيشفى » ولـكني لم أقوَ على رؤية الرجل وصممت على أن أطلق عليه المسدس. وبينما أنا أرفع المسدس سمعت صوت ابني وهو يقول : « لا تفعل يا أبي . لئلا تؤذيني أنا أيضاً »

واستيقظت وأنا في غاية المرض والشقاء . وكان هذا الحلم أفظع ما مر بي في حياتي

* * *

انتهى ما كتبه هذا الطبيب الى الدكتور رفرز . ونحن فيما يلي سنسير مع الدكتور رفرز في تفسيره الذي مهدنا له قبـل أن ننقل هذا الحلم

فهذا الطبيب كان يعمل في الخنادق مدة الحرب وكان يرى جثث الجرحى والقتلى فيتألم . وأخيراً رأى جثة رجل ممزقة وسمعه وهو يئن أنيناً فظيعاً . فدب الرعب في قلبه وقام في عقله الباطن كره

شديد لهذه الصناعة التي تضطره الى رؤية هذه المناظر كل يوم

ولكنه يعرف ان له عائلة يجب ان تعيش وانه يجهل أي صناعة اخرى . فهو في صراع بين أن يترك الطب مع أنه مأمون الدخل وبين ان يبحث عن صناعة أخرى غير مأمونة الدخل . وقد فاوض عائلة زوجته في هـذا الموضوع . فأبدى أعضاء العائلة كلهم استنكارهم لتركه الطب . ولكن آلامه كانت شديدة ففكر في الخلاص من كل ذلك بالانتحار ولم يكن يمنعه غـير الخوف على مصير أولاده . فالحلم صراع بين جملة أشياء :

١ ـ كراهته للطب مع الثقة من الربح منه

٢ ـ ميله الى عمل آخر مع عدم الثقة من الربح منه

٣ ـ تفكيره في الانتحار للخلاص من هذا التردد

٤ ـ خوفه على مصير أولاده اذا إنتحر

٥ ـ رغبته في ان تنتهي الحرب حتى يعود السلام

٦ ـ رغبته في ان تنتصر امته ولو طال الحرب

فهذا كله اندمج في حلمه . فهو يخطب خطبة وطنية ولكنه يشعر بالتردد فيها . ويرى رجلا يقعد في مقعده . وهـذا الرجل الاحمر الوجه الذهبي الشعر هو نفسه قد تمثل أمامه . وقد حـدث ما سميناه في الفصل السابق بأنه « نقل » أي أنه نقل شخصه الى شخص آخر

ولكن لماذا يكون الرجل أحمر الوجه ذهبي الشعر ؟

كان هذا الطبيب في صغره يحب أن ينشأ رجلا بهذا الشكل . فاندست هذه الرغبة القديمة في عقله الباطن حتى رآها في الحلم ممثلة

في الرجل الذي يقوم مقامه ويقعد في مقعده

ورأى على الباب الايسر رجلا كندياً يشبه والد زوجته ويحمل عصا يتلوى عليها ثعبان . وهذا الرجل يمثل عائلة زوجته . لان زوجته كندية . والعصا والثعبان يمثلان شارة الطبيب التي توضع على الكم : وعائلته تطلب منه أن يلزم الطب ولا يتركه . ثم عاد هذا الرجل فهدده بالكورسيه الذي تلبسه زوجته . والكورسيه رمز للزوجة . وعلى الباب الايمن الدكتور س ... وقد ستر جسمه بالسترة التي تستعمل عند فحص الجثث . وكان الدكتور س . . . قد انتحر منذ أشهر . فهو يقف على الباب الآخر لكي يحبب اليه الانتحار ويذكر ملائكة السلام أي الموت الذي يختم هذا القلق والشقاء

وبينما الخطيب يهم بقتل الرجل أي بقتل نفسه يخرج ابنه ويمنعه ويقول ان الانتحار يؤذيه أيضاً . فيكف عن الانتحار

والتفسير واضح . وقد اقتنع به الطبيب وعمل بمشورة الدكتور رفرز الذي نصح له بترك ميدان الحرب والانخراط في السلك الخاص بصحة المدن حيث لا يرى جثة ما في حياته وحيث يقتصر عمله على ما يشبه الهندسة من نظام الماء والبالوعات ونحو ذلك

الاحلام والتنبؤ بالمستقبل

من يقرأ شيئاً عن الاحلام القديمة وتفسيرها يجد أن القدماء كانوا يرون في الاحلام علامات واشارات يمكن التنبؤ بها عن المستقبل وهذا أيضاً رأي العامة الآن في الاحلام

وليس ذلك بمستغرب اذا عرفنا اننا نحلم بهمومنا التي نطردها عنا وقت اليقظة لاننا نكره الاشتغال بها في حالة الوعي فاذا نمنا انطلقت من حبسها وأعادت الينا همومنا المكبوتة في هيئة رموز يسهل تعرف اصلها احياناً . فاذا كنا نخشى شيئاً نظن انه سيقع لنا يوماً ما فان رؤيتنا له في النوم تتكرر بأشكال مختلفة . فاذا اتفق ان ما نخشاه وقع بالفعل فاننا نعزو الى الحلم صفة التنبؤ

ولكي نوضح ذلك يمكننا ان نفرض ان أماً مشتغلة البال على الدوام بسلامة ابنها وتخشى عليه من ان يدوسه الترام أو الاتومبيل وتعرف من خصاله انه كثير اللعب والجري في الشوارع ولكنه لا ينتهي بزجرها . فتبقى مهمومة بشأنه . ولكن الهم مؤلم . فما دامت يقظة فهي تطرد هذا الهم لما يحدثه من الالم . ولكنها اذا نامت رأت ابنها وقد داسه الترام وجرحه . ويحدث أن ابنها يجرح في اليوم أو الاسبوع الثاني للحلم فترى هي صدق التنبؤ من الحلم . ولكن

الواقع ان أي انسان آخر يعرف انطلاق ابنها في الشوارع ويقدر متوسطاً للحوادث كان يمكنه أن يتنبأ ايضاً بأنه لا بد أن تحدث حادثة لهذا الولد

حدث منذ اعوام أن باخرة خرجت من أستراليا تقصد الى انجلترا. فلما كانت في الطريق قبل أن تبلغ أحد المواني الاسيوية نزل اثنان من المسافرين لان كلا منهما حلم انها غرقت . فتشاءم من الحلم وترك الباخرة وانتظر باخرة أخرى . وما كادت الباخرة الاولى تبلغ سواحل أفريقية حتى غرقت هي ومن فيها

والقارىء لهذا الخبر يتوهم ان ما رآه الرجلان في الحلم قد تحقق وان في هذا حجة وبرهانا على صحة التنبؤ في الاحلام . ولكن قليلاً من التأمل يبين عكس ذلك . فان الباخرة بالطبع لم تغرق إلا لخلل في آلاتها . وهذا الخلل لا يحدث فجأة وانما تكون له علامات مثل اضطراب الحركة أو الميل الزائد أو نحو ذلك . فالاغلب ان أحد هذين الرجلين لاحظ على الباخرة شيئاً من ذلك ودب في عقله الباطن خوف عليها . والبحر كالظلمة يزيد المخاوف . فربما حادث رفيقه فيما رآه غريباً في مسلك الباخرة . ولكن عادة الانسان أن يكبت العواطف المؤلمة . ولذلك فهما يسكتان عن بحث الموضوع بصراحة . فاذا ناما رأى كل منهما هذا الخوف متجسماً في غرق الباخرة . ولذلك فهما يتركانها وتغرق هي بعد ذلك بأسبوعين

وفي الحلم التالي يرى القارىء شيئاً يشبه التنبؤ . ولكنه ليس في الواقع تنبؤاً بل هو عند التحليل شيء آخر لا يقل غرابة عن التنبؤ يثبت لنا فائدة الاحلام أحياناً لانها تنبهنا الى أشياء نجهلها

فقد حدث أن رجلاً انجليزياً يدعى ج . . . كان راكباً للقطار . فاصطدم القطار ووقع ج . . . وكسرت له عدة أضلاع . وعولج من الكسر وشفي منه حسب الظاهر ومضت على ذلك سنتان والرجل لا يرى ما يشكو منه في جسمه . ثم حدث أنه أصيب بذات الجنب التي انتهت بخراج لم يعرف موضعه . فكان يتألم فاذا فحصه الطبيب لم يستطع الاهتداء الى مكان الخراج

وفي أحد الايام بينما هو راقد في سريره زاره صديق فطلب منه أن يخبر الطبيب بحادثة القطار التي مضى عليها سنتان لعل لها علاقة بما يتألم منه . ولكن المريض ضحك وهزأ بهذه النصيحة

ونام المريض بعد ذلك ولكنه استيقظ وهو يصرخ . فلما جاءته الممرضة تسأله عن علة صراخه أخبرها بأنه حلم بحادثة القطار التي حدثت له قبل سنتين وأخذ يشرحها لها . فلما جاء الطبيب أخبرته الممرضة كما أخبره هو بالحادثة. فعمد الطبيب الى مكان الصدمة القديمة وفتحه وأخرج منه اكثر من رطل من الصديد . وشفي الرجل بعد ذلك

فما هي دلالة هذا الحلم ؟

دلالته أن العقل الباطن كان يدري بمكان الخراج في حين أن العقل الواعي كان يجهله . ولذلك ما كاد العقل الباطن ينتبه قليلاً الى الحديث في حادثة القطار حتى استعاد الذكرى ومثلها وكأنه بذلك قد ارشد صاحبه الى مكان الخراج

ومن هذا المثل الاخير يمكننا أن نعزو الى العقل الباطن ميزة الوقوف على تلك العلل الخفية في الجسم فاذا حلمنا بأننا سنمرض

فالاغلب ان في جسمنا خللاً قد شعر به العقل الباطن ودلنا عليه عن سبيل الحلم

وبهذه المناسبة نذكر حلماً يخشاه كثير من الناس ويظنون ان فيه تنبؤاً قد يتحقق فقد يحلم شاب أن أمه قد ماتت فيشتغل باله كثيراً وخاصة اذا كانت بعيدة عنه . ولكن ليس في هذا الحلم سوى تحقيق شهوة . ولا نعني بذلك ان الشاب كان يشتهي موت أمه عند ما حلم هذا الحلم . وانما نعني ان هذا الحلم هو استعادة لشهوة قامت في نفسه وهو صبي عند ما كان لا يقدّر معنى الموت ويدرك نتيجته ادراك الشاب له . فكثيراً ما يدعو الصبي على أمه بأن تموت ولكنه في دعائه لا يقدّر معنى الموت . واحياناً ونحن في الشباب نستعيد شهوات الصبا فنراها محققه ونجزع لها

الثقافة القديمة في الاحلام

قلما يحلم الانسان حلماً يشبه حلم هذا الطبيب الذي ذكرناه فيما تقدم تحتوي مادته على لغة وكلام . وانما الاكثر أن « يُرى » الحلم ولا يسمع . وهو لذلك يسمى « رؤيا » وقلما تغيب عن الحلم مادة الثقافة القديمة كما هي غائبة في حلم الطبيب الذي ليس به من علامات الاحلام سوى الرموز وذكرى الطفولة في رغبة الطبيب وهو صبي أن يكون رجلا ذهبي الشعر أزرق العينين

فنحن في معظم أحلامنا خرس لا نتكلم وانما نرى فقط . وهذا يتفق ونظرية العقل الباطن من حيث انه خزانة الثقافة القديمة . فقد كان الانسان في بدء حياته الانسانية عقب خروجه من طوره الحيواني أخرس لا يتكلم وكان يخترع الرموز للاشياء

ففي هذا الحلم كما قلنا :

١ ـ رموز وهي كثيرة في الاحلام

٢ ـ واستعادة رغبات الطفولة وهي كثيرة في الاحلام

ولكن فيه شيئاً لم نذكره للآن وهو ان الافكار مجسمة . وتجسيم الافكار هو الاصل في هذه الرموز . فالطب مجسم في شارة الطبيب في الجيش أي عصا وثعبان . والواجب الزوجي مجسم في

الـكورسيه التي تشـد المرأة به وسطها . والانتحار مجسم في رجل كان قد انتحر

فالافكار والآراء تتجسم لنا في الحلم أشخاصاً أو أشياء . فكلنا نحلم بنوع من الهيروغليفية المصرية . ولـكننا نعرف أن الهيروغليفية المصرية نشأت صوراً كل صورة تدل على أصلها . ثم تطورت فخرجت عن هذا الاصل حتى صارت رمزاً له أو لجملة أفكار أخرى قريبة منه

وعلى هذه الوتيرة نشأت اللغات كلهـا . ولذلك فاننا اذا أردنا أن نعرف معنى الرموز التي في الاحلام وجب علينا أن ندرس اللغات القديمة وأيضاً يجب أن ندرس رموز الشعر والفكاهة . وذلك لان هذه الرموز تأتي في الشعر أو الفكاهة خواطر غير مقصودة فيكون العقل الباطن هو العامل الاكبر منها . والعقل الباطن هو نفسه الذي يحدث الاحلام

ويمكن بتحليل الالفاظ في اللغات الحديثة أن نرى فيها الرموز العامة التي تستعمل في الحلم . وهذه الرموز العامة قليلة بالطبع لانها لعموميتها تشمل جميع الناس من أي الشعوب واللغات ولـكن لـكل أمة رموزاً خاصة تخرج من بيئتها فالجمل مثلاً رمز عند العربي لا يمكنه أن يراه الاوربي في حلمه . والقبعة رمز عنـد الاوربي لا يفهمه العربي

فمن الرموز العامة أن نرى السفينة أو الزورق في الحلم ويكون معناه عندئذ المرأة . وهذا واضح في تأنيث السفينة عند الانجليز مع ان الجمادات في لغتهم لا جنس لها . وواضح أيضاً في أننـا نسمي السفينة في لغتنا « جارية » أي امرأة فنقول « الجواري المنشآت »

والعرب تسمي المرأة كما سمتها التوراة « ماعوناً » فاذا رأينا ماعوناً في الحلم أدركنا منه أنه رمز للمرأة

وأحياناً يكون المنزل رمزاً للجسم . وفي الاغلب جسم المرأة اذا لم تكن قرائن الحلم منافية لهذا الغرض . ونحن في لغتنا العربية قد قرأنا هذين المعنيين فنقول « بنية » الرجل أو المرأة بمعنى جسمه وهي مشتقة من البناء . ونقول « العمود » الفقري . والاعمدة من البناء . ونقول لبطنه « جوفه » كما نقول جوف المغارة

والملابس التحتية رمز للمرأة كما رأينا في حلم سابق حين وضع الكورسيه رمزاً للزوجة واستخرجنا منه معنى الواجب الزوجي

ونحن نقول عن الموت أنه « الرحلة الاخيرة » أو « السفر البعيد » وكذلك نرى هذا المعنى رمزاً للموت في الاحلام . وهذا المعنى رآه قدماء المصريين حين شرعوا يفكرون في الموت . وليس « كتاب الموتى » الذي كانوا يضعونه مع الميت سوى الدليل الذي يهديه في ذلك السفر البعيد . ونحن عند ما نريد أن نعبر عن الموت للطفل وننزل الى المعنى الذي يفهمه نقول له عن الشخص الميت الذي يسأل عنه أنه « راح بعيداً » ومن هنا نفهم الاتفاق الواقع بين لغة الطفل وأفكاره ولغة الحلم ولغة الانسان القديم

ونعبر عن الولادة بالخروج من الماء وذلك لان عقلنا الباطن يفهم أن هذه هي الحقيقة الاصلية التي يعرفها . فاننا نعيش تسعة أشهر في بطون أمهاتنا في سائل نخرج منه وقت الولادة . والاسطورة

القديمة عن موسى والنهر تدل على هذا الخاطر . فالخروج من الماء رمز في أحلامنا الى الولادة

ومعظم الرموز في الاحلام تخص الغريزة الجنسية ولكننا لا يمكننا هنا أن نتوسع في ذكرها . ويمكننا أن نختصرها في القول بأن الفواكه ترمز الى المرأة عند الشاب . وان الولائم ترمز الى الرغبة في الزواج

والى القارىء حلمين يمكنه أن يحاول حلهما قبل أن يقرأ الحل :

١ ـ ا . . . فتاة تحلم أنها يعرض عليها معطف مثل المعطف الذي لاختها المتزوجة فترفض وتطلب معطفاً أوسع وأكبر

٢ ـ س . . . تحلم ان وحشاً قد هجم عليها يريد ان يشق بطنها فاشتد رعبها حتى شعرت بالكابوس

فالمعطف في حلم الفتاة الاولى هو الزوج فهي ترفض ان تتزوج رجلا يشبه زوج اختها وتطلب زوجا أرفع منه

والوحش في حلم الفتاة الثانية هو الرجل في حالة التهييج الجنسي . وقد كان الرجل في الازمنة البعيدة يخطف المرأة من بين أهلها . وليس شك في ان المرأة في ذلك الوقت مع رغبتها في الزواج كانت ترعب رعباً شديداً من هذه الحادثة . ولذلك فان عقلها الباطن الذي اختبر هذه الاختبارات القديمة يصور لها الرغبة في الزواج كما يفهمها من اختباراته

واذا كنا نحن في احلامنا نستعمل الرموز فان استعمالنا لها يتفق وطريقة التفكير عند الانسان الاول . فقد رمز الى قوى الطبيعة المعنوية بالآلهة . والإله شخص . فالانسان القديم شخص قوي الطبيعة .

فكما نرمز نحن في الاحلام الى الواجبات الزوجية بالكورسيه وكما نرمز الى التسامي بركوب الطيارة كذلك رمز هو الى الموت والحياة والمرض والزراعة باشخاص هي الآلهة القديمة . وكذلك نشأت اللغات في الاصل رموزاً وما زلنا نحن نرى في الاستعارة والمجاز معنى الرمز . ومعظم فكاهاتنا لا تزال قائمة على هذا الاصل

العقل الباطن في الخواطر

لكي نفهم طبيعة الخواطر يجب أن نذكر شيئين عن رفرز وفرود . فكل منهما قطب من أقطاب النفسلوجية الحديثة

فالاول يقول ان خير طريقة يمكن استعمالها لتفسير الاحلام ان يبقى صاحب الحلم عقب حلمه واستيقاظه منه في فراشه مسترخياً يتذكر وقائع الحلم ثم يقرن الى هذه الوقائع ما يخطر في باله عنها ويقيد كل ذلك في ذاكرته ثم يقابل خواطره بوقائع الحلم فيستطيع عندئذ التفسير

وطريقة فرود هي ان يطلب من صاحب الحلم ان يترك خواطره تنساب كما تشاء فلا يقيدها بأي قيد بشأن هذا الحلم. فاذا حلم مثلاً أن كلباً قد عضه فانه يذكر لفظة « كلب » ثم يكتب كل ما يخطر في باله عن هذه اللفظة . وكذلك لفظة « عض » فانه يذكر جميع الالفاظ التي تمر بذهنه عند ما يذكرها

فكل من فرود ورفرز يستعمل الخواطر لتفسير الاحلام . والسبب في ذلك أن العاطفة المكبوتة في العقل الباطن وهي التي تحدث الاحلام وقت النوم هي نفسها التي تحدث الخواطر وقت الاغفاء حين يكون العقل الواعي غافلاً غير منتبه

فالخواطر هي في الحقيقة أحلام اليقظة . فاذا كان الحلم الذي رأيناه في النوم قد أشكل علينا فهمه فلا بأس من أن نكمله ونفسره بالخواطر . لان كليهما ينبع من معين واحد هو العقل الباطن . ولكن الخواطر تمتاز من الاحلام بأنها لا تفارق المحسوس كل المفارقة ولا يعدو خيالها المستحيل. فاذا كان لي خصم قد أهانني ولم أستطع رد اهانته حتى احتبست عاطفة الغيظ في نفسي وكمنت في العقل الباطن فاني في الاحلام أجد أني قتلته أو أراه كناساً في الشارع أو ان وحشاً يأكله. ولكني في الخواطر لا أتمادى الى هذا الحد في الخيال لان عقلي الواعي ما يزال صاحياً بعض الصحو ولم ينم كل النوم فهو لذلك يقيد خواطري ويجعلها تجري وفق الواقع أو قريباً منه . فأنا في خواطري وأنا قاعد أفكر في خصمي لا أرى وحشاً يأكله ولكني أراني أشتمه وأضربه وأشرح له وقاحته وغلطته وأتخيله يتذلل لي ونحو ذلك . فالخواطر هي أحلام مخففة قد شابها العقل الواعي

والعقل الباطن يجري في الاحلام والخواطر على وتيرة واحدة وهو تداعي العواطف . فالعاطفة تدعو العاطفة وتمثل الرغبة في شخص أو شيء . وكلما كانت العاطفة قوية زادت الخواطر عنها

والعقل الباطن أكثر تصريحاً بنياتنا من عقلنا الواعي . ولذلك كثيراً ما تكون فلتة اللسان أكشف للنية من الكلام المدبر الموزون . لان الكلام الموزون يصدر عن العقل الواعي وهذا انما يعبر عن نياته بحساب وتوقٍّ من الغلط وتقدير للظروف فلا تخرج النية صريحة. أما العقل الباطن فانه يصرح بها لأنه لا يحسب لشيء ما فهو يعبر عن

وغباته بسذاجة الطفل أو أحياناً بسذاجة الحيوان

منذ أيام كنت في مجلس وبه فتاة مريضة . وكان بين الحاضرين اثنان رجل وسيدة بينهما خصومة قديمة . فلما همَّ الرجل يريد الخروج أراد أن يودع هذه السيدة فقال « سلامتك » يريد لها السلامة كأنها مريضة مع أن السلامة كان يجب أن توجه الى الفتاة المريضة . ولكن لانه يرغب في مرض السيدة نسي أن يودعها الوداع العادي الذي تودع به سائر السيدات ، فسبب نسيانه أو سبب هذه الفلتة من لسانه هو نية السوء التي يضمرها لهذه السيدة . وهذه النية صرح بها عقله الباطن على غفلة من عقله الواعي . وحدثت هذه الفلتة

وأراني في هذا الكتاب قد أخطأت جملة أخطاء يطلق عليها عادة اسم « زلة القلم » وهذه الزلة تتسم عندي في الغالب بنسيان حرف أو حرفين من الكلمة فبدلاً من أن أكتب « العقل الباطن » أكتبها هكذا « العقاطن » والسبب في هذه الزلة أنه تقوم بنفسي الرغبة في انهاء الفصل بسرعة . فيتوهم عقلي الباطن لسخافته أن السرعة تقتضي أن أثب من كلمة الى أخرى كما يثب الانسان في المشي اذا أراد العجلة . فاذا سنحت له فرصة من غفلة عقلي الواعي اندفع هو وأحدث هذه الزلة طلباً للتعجل

ففي هاتين الحالتين نرى أن النسيان الذي هو أصل فلتة اللسان وزلة القلم كان له سبب معقول . وهكذا الحالة في كل نسيان . فنحن لا ننسى شيئاً الا ولهذا النسيان سبب

أعرف صديقاً لي خطب فتاة وأحبها . فكان اذا أراد الذهاب الى منزله ساقته قدماه وهو لا يدري الى الشارع التي تسكن فيه خطيبته .

وهو لا يتنبه الا وهو على الباب فيتعجب لنفسه كيف جاء مع أنه لم يقصد المجيء

وهو انما فعل ذلك لان عاطفة الحب قوية في عقله الباطن فهي تسارق عقله الواعي وتنتهز غفلته ثم تسوق القدمين الى غرضها . وهو بالطبع لو كان عقله الواعي منتبهاً لما انساق لهذه العاطفة . ولكننا حين نمشي في الشارع لا نكون في كامل وعينا فيجد العقل الباطن الفرصة في انفاذ غرضه . ولذلك كثيراً ما تخطر لنا الخواطر وقت مشينا وكثيراً ما نرى ناساً يكلمون أنفسهم ويشيرون بأيديهم وهم سائرون في الطريق

وقد رأينا في حلم الانتحار كيف تنشأ الرغبة في الانتحار وتندس كامنة في العقل الباطن حتى يفشيها الحلم . ولكن من الناس من يبلغ به الشقاء أن تشتد عنده الرغبة في الانتحار حتى يجد العقل الباطن فرصة في غفلة العقل الواعي فينتهزها . وقد يكون المسكين ماشياً في شارع فتزل قدمه به حتى يدوسه أتومبيل ويموت . فالحادثة أمام الناس قضاء وقدر أو اهمال من السائق ولكنها في الواقع انتحار قد انساق اليه المنتحر بعقله الباطن وهو لا يدري . وهو في هذا الانتحار كالمحب الذي انساق الى بيت خطيبته وهو لا يدري إلا انه أمام منزلها

وتسمع أحياناً عن رجل لطم آخر لطمة واحدة فقتله . فالحادثة ضرب أدى الى قتل حسب الظاهر ولكنها في الواقع قتل صحيح لا غش فيه . فان الضارب قد نوى القتل في عقله الباطن وأراد

الضرب بعقله الواعي ولكن النية الباطنة تغلبت على الارادة الظاهرة وجعلت اليد تقع حيث يكون الموت نتيجة اللطمة

ففي زلة اللسان والقلم والقدم واليد ترى النية المكبوتة في العقل الباطن تخرج وتنتهز غفلتنا حين يضعف وعينا فتحدث هذه الزلة التي نظنها خطأً بريئاً . ولكن النفسلوجية الحديثة تثبت بالتحايل أنه ما من خطأ نخطئه يكون سببه النسيان إلا وله أصل في عقلنا الباطن

ولكن ليست خواطرنا كلها زللاً . فنحن طول النهار تخطر ببالنا الخواطر وهي تتسق والاحلام في الطريقة وتعبر عن شهوة كامنة أو عن صراع بين النية الكامنة في أعماق نفوسنا وبين الظروف المحيطة بنا وتجري في كل ذلك على طريقة الحلم من حيث الطفولة في الاسلوب . فان مطامعنا في الخواطر لا تحد ومبالغاتنا كثيرة تشبه ما يتخيله الصبي ولكنها مع ذلك دون الحلم في الدرجة ثم هي خلو من الرموز

ولكن يحدث فيها « النقل » أحياناً فقد رأينا في حلم الطبيب الذي رغب في الانتحار أنه نقل شخصه الى شخص آخر قعد في مقعده . وقد حدث لي مرة أن دعاني صديق الى الغداء في الريف وكان يرافقني آخر . فجعلنا نجول بين الحقول حتى شعرت بالجوع فقلت لرفيقي : لا بد انك جعت جداً

والحقيقة ان الذي جاع هو أنا ولكني نقلت شخصي الى شخصه . وليس من الواضح للآن لماذا يحدث النقل في الحلم وهو أندر وأقل وضوحاً في الخواطر

وقد رأينا في الاحلام كيف يحاول العقل الباطن أن يسمو بصاحبه ويرقى. وكذلك في الخواطر يحاول عقلنا الباطن أن يخيل لنا الرقي ويدفعنا اليه ويعمل لتطورنا من حالتنا الراهنة الى حالة أرقى. فاذا نحن أردنا أن نقف على كنه نفوسنا وميولنا وجب علينا أن نفحص خواطرنا وأحلامنا فهما يمثلان لنا أطماعنا في الدنيا ومشكلاتنا الخفية وأخلاقنا الاصيلة في نفوسنا

ولكن تحدث لنا فترات تنحط فيها خواطرنا وأحلامنا. فالشاب المراهق ليس له من الخواطر والاحلام سوى ما يتصل بالغريزة الجنسية وليس للجائع منهما سوى ما يتصل بالطعام. وهذه فترات أشبه بالمرض منها بالصحة كالسجين يحلم بالانطلاق من السجن فيرى الملائكة في نومه تحمله الى النافذة وتخرجه منها ويتخيل في خواطره مئات الوسائل التي يستطيع أن يفر بها من السجن فهذه فترات وقتية يكون فيها الشخص أشبه بالمريض فيعمد عقله الباطن الى تخصيص كل قواه لانقاذه. فالعقل الباطن عند المسجون لا يفكر الا في انقاذه فيخيل له الانطلاق والحرية ووسائل الانقاذ. وعند الجوعان يخيل له الاطعمة وعند المراهقة تخفف العاطفة الجنسية المحبوسة بتشخيص الحالة

ولكن كلا منا يعرف أنه يمكن بشيء قليل من العزيمة أن نوجه خواطرنا الى معان واغراض اخرى غير تلك التي يسلكها عقلنا الباطن. فبدلاً من ان نتخيل الطعام يمكن أن نتخيل قصراً نملكه أو غنى نبلغه أو نحو ذلك مما تطمح اليه نفوسنا وفيه من القوة ما يغمر العاطفة السابقة عاطفة الجوع. واذا كانت أحلامنا مريضة

فاننا يمكننا بتهيئة العقل الباطن قبيل النوم ان نوجهها الى الاغراض التي نريدها . وقد كان ابن عربي الصوفي الاندلسي يقول : « ينبغي للعبد ان يستعمل همته في الحضور في مناماته بحيث يكون حاكما على خياله يصرّفه بعقله نوماً كما كان يحكم عليه يقظة »

وليس ذلك بالصعب اذا عمدنا الى أنفسنا قبيل النوم ساعة الاسترخاء وغفوة الوسن الاولى فنتخيل أشياء سامية نحب أن يشتغل بها عقلنا الباطن وقت النوم . ولا عبرة بما نشعر به عند اليقظة في الصباح حين لا نذكر أننا حلمنا بما أردنا أن نحلم به . فالاغلب أننا حلمنا ونسينا

وانما ننسى معظم أحلامنا لان العقل الواعي يكبتها عند اليقظة لانها تنافي أغراضه ومسالكه كما تنافي الواقع الذي يعرفه هو . ولذلك فان أحسن الاوقات لاستذكار الحلم هو تلك الفترة التي بين النوم واليقظة حين يكون العقل الواعي ما يزال في غفوته لم ينتبه تمام الانتباه

الكبت والتسامى

أرغب الناس في وصف الاطعمة وألوانها هو الجائع أما الشبعان فليس أسأم لنفسه من ذلك

وكذلك أرغب الناس في وصف الجمال ولذات العشق هو المحروم من الحب أو المقهور في عواطفه الجنسية

ومعنى هذا ان عاطفة الجوع المكبوتة قد تستحيل عند الجائع الى نوع من الفن الوصفي وتستحيل عاطفة الحب عند العاشق الى نوع من الادب الغرامي

وهذا هو التسامي . أي أننا نتسامى بالعاطفة الى فن من الفنون العليا فنصرفها اليه فاذا وجدت مُنصرفاً اليه خف اللبيد المحتبس من جهة ونبغنا نحن في الفن من جهة اخرى

فالنبوغ في الفنون يحتاج الى عواطف مكبوتة قد استحالت ممارسة للفن . وذلك لان العاطفة المكبوتة في العقل الباطن طاقة أي قوة تحاول أن تستحيل الى ارادة فعمل . ولكنها لا تجد ذلك فتنتهز فرصة النوم وتستحيل حلماً أو تنتهز فرصة السهو والغفلة فتخرج على سبيل الفلتة أو الزلة أو تجري خواطر سائبة تتخيل فيها الخيالات

ولكن هذه الطرق لا تكفي العاطفة المكبوتة اذا كانت قوية .
ولذلك يحدث كثيراً أو يتفق لنا لحسن الحظ أن نتسامى بهذه العاطفة الى خدمة قريبة في المعنى لهذه العاطفة وبهذا يخف اللبيد (أي العاطفة المكبوتة) ونستطيع خدمة الهيئة الاجتماعية بخدمة الفن الذي نمارسه

ولذلك يجب ان نعرف أنه اذا كانت العواطف المكبوتة تحدث الجنون أحياناً فانها أحياناً أخرى تحدث النبوغ

منذ أكثر من ثلاثة قرون كان يعيش في اجرة بالهند أمير مسلم وكانت له زوجة تدعى نور محل . وكان يعشقها عشق المتيم . ثم ماتت

فماذا يفعل بهذه العاطفة المتأججة في صدره عاطفة الحب ؟

كان أمامه طريقان :

١ً ـ إما ان يخيلها له عقله الباطن شخصاً قائماً حياً يخاطبه في وعيه ويقظته كما نرى نحن شخص الميت العزيز في أحلامنا . وهذا هو الجنون

٢ً ـ واما أن يتسامى هو بهذه العاطفة الى عمل فني فيصرف عاطفة الحب الى هذا العمل وبذلك لا يطغى العقل الباطن على وعيه

وهذا الطريق الثاني هو ما أختاره . فان حبه الماضي لزوجته كان مؤلفاً من جملة عناصر هي الاعجاب بالجمال والافتتان به والولاء والاخلاص للزوجة والاقامة على الحب

وهذه العناصر نفسها قد تمت له في اقامة أثر فني مصنوع من المرمر الناصع يدفنها فيه . وقد قضى عشرين سنة وهو يبني هذا الضريح الذي يسمى الآن « تاج محل » . فالاعجاب بالجمال الذي

كان للزوجة قد استحال اعجاباً بجمال البناء . والولاء للزوجة والثبات على حبها قد استحالا الى ولاء وثبات على حب هذا الاثر وبذل المال في تكاليفه حتى كان راضياً بأن يقوم على بنائه ٢٠٠٠٠ عامل في اليوم

فعاطفة الحب للمرأة قد تسامت في هذا الامير الى عاطفة الحب للبناء

وكذلك يمكن الشاب ان يتسامى بالعاطفة الجنسية المتأججة فيه الى خدمة فن من الفنون الجميلة كالمثالة أو التصوير أو أي عمل آخر يحتاج الى ما يشبه عواطف الحب . ومعظم الاعمال بل كلها تقريباً تحتاج الى ذلك

كان لويولا مؤسس اليسوعية يعشق فتاة ثم قُهرت فيه عاطفة الحب . فوجد منصرفاً لها في خدمة الدين المسيحي لان الولاء للدين وحب التضحية وبذل المال والمجهود لخدمة الدين يشبه في عناصره الحب للمرأة والولاء لها لان في الاثنين معنى العبادة

وبهذا التسامي ينجو الشخص من الجنون . وكثيراً ما يحدث الجنون لان الشخص لا يرى سبيلا للتسامي . فقد تفقد أم وحيدها فهو لا يفارقها في خواطرها. وهو حي أمامها في أحلامها وقت النوم

وكل هذا شيء عادي قد يحدث لنا مثله اذا فقدنا عزيزاً . ولكن الطاقة المكبوتة عندها شديدة فما تتخيله في الاحلام يتجسم لها وقت اليقظة فلا تصدق أنه مات ويطغى العقل الباطن فلا تزال تخاطبه وتحادثه كأنه أمامها . وهذا هو الجنون

ولكن اذا وجدت طريقاً للتسامي نجت من ذلك . وهذا

السبيل انما يكون بشيء قريب من الحب السابق لابنها كأن يوجه نظرها الى العناية بالايتام الذين يشبهون ابنها في السن . أو كأن تتبنى صبياً يشبه ابنها فتكسوه بالحب الذي كانت تشعر به لابنها وتنصرف عاطفتها اليه

وأنت بالطبع قد سمعت عن « مجنون ليلى » كيف حرم من حبيبته فجن . والقصة في الاغلب موضوعة لا أصل لها . ولكنها تدل على السبيل الذي تتخذه العاطفة المكبوتة اذا لم تجد سبيلا الى التسامي . ولكنه هو تسامي الى الشعر ولم يكن لذلك مجنونا كل الجنون

وفي بعض الاحيان تجد فتاة أو سيدة قد اسنت ولكنها تغرم بالكلاب أو القطط غراماً فظيعاً اذا بحثت عن أصله لم يطل بك البحث حتى تجد ان هذه الفتاة أو السيدة اشتاقت أن يكون لها أولاد واشتدت بها هذه العاطفة . ولكنها كبتتها ثم اتفق ان اهدي اليها كلب أو قط فوجدت هذه العاطفة المكبوتة منصرفا الى هذا الحيوان . فهذه الامومة الجائعة قد وجدت مقنعاً في تربية القطة او تربية الكلب

ولكن ليس في تربية الكلب شيء من التسامي . وانما يحدث هذا التسامي اذا عمدت الفتاة أو السيدة الى العناية بالايتام من الاطفال أو التصدق على الفقراء أو نحو ذلك لانها في هذه الاعمال تصرف حنوها الى الصبيان وتصرف ما فيها من عناصر للبذل والخدمة الى المجموع

وعلى هذا المبدأ يجب ان نقول ان الحماسة في خدمة الفنون أو خدمة الهيئة الاجتماعية لا تكون الا مع شيء من الكبت حتى تتجمع

القوة في العقل الباطن وتنصرف الى عمل شبيه في عناصره بعناصر العاطفة المكبوتة

والتسامي اما أنه يأتي عمداً واما عفواً . وهو كثيراً ما يأتي عفواً في الخواطر. فاننا حين نفكر في زيادة سلطاننا أو زيادة أدبنا أو علمنا أو جاهنا نتسامى بعاطفة مكبوتة

ولعلك الآن قد فقهت الى العلاقة بين الغرام والادب وفطنت الى العلة التي جعلت الادب قائماً على القصص الغرامية حتى ان ٩٩ في المائة من الكتب الادبية هي قصص خاصة بالغرام. وكل هذا الآن في الاديب عاطفة مكبوتة هي العاطفة الجنسية . وهذا التسامي الذي يحدث عند الاديب يحدث مثله عند العالم والطبيب والمهندس ورجل الدين فان في العاطفة الجنسية من العناصر ما نجهله اذا نظرنا الى ظاهرها فقط . ولكن اذا تعمقنا في فحصها وجدنا أن فيها عنصر الولاء والامانة وحب الجمال والرغبة في الخدمة وروح النظافة والطهارة وحب الاولاد والتبصر للمستقبل وتكوين العائلة وما يتصل بالعائلة من رغبة في اقتناء الثروة ونحو ذلك . ولذلك فان الاديب أو العالم أو المهندس أو أي انسان يمكنه ان يتسامى بعاطفته الجنسية الى واحد من هذه الوجوه . ولعلك أيضاً قد فقهت الى العلاقة بين معاني الحب والغرام وبين الابتهال والحب لله عند الصوفيين القدماء حتى اننا نقرأ ابن الفارض فلا ندري موضوع حبه أهو الله أم الخمر والمرأة

وكما ان العاطفة الجنسية كانت الطريق في تطور الاحياء الى وجود العائلة والعناية بالاولاد واجتماع القطيع وبناء العش كذلك هي الآن السبيل الى المعاني السامية في الاجتماع البشري

العقل والجسم

ليس شك في تأثير العقل في الجسم. فالفتاة اذا خجلت احمرت وجنتاها . ومعنى هذا ان خاطر الحياء الذي خطر بذهنها قد أثر في القلب وفي ناحية عروق الوجنتين حتى أحدث توردهما . والطفل اذا خاف يبول أحيانا على نفسه . واذا تسلط علينا الحزن العميق ساء هضمنا فأحياناً نقيء وأحياناً لا نستطيع أن نأكل كما ان السرور يحسن الهضم

ومعنى هذا كله ان الافكار والخواطر التي تمر بأذهاننا يتأثر بها جسمنا . وكذلك عقلنا يتأثر من جسمنا

فقد سبق ان قلنا ان التفكير يبدأ بالمعرفة ثم العاطفة ثم الرغبة

وكل عواطفنا تؤثر في أجسامنا. ولكن يمكننا استحداث العاطفة بتحريك العضو الخاص بها . فاذا تضاحكنا مثلا وليس هناك ما يضحكنا ، فان هذا التضاحك يحدث سروراً عندنا وينتهي بنا الى الضحك الحقيقي . واذا تباكينا انتهى التباكي المصطنع ببكاء حقيقي نشعر فيه بالحزن

ومعنى هذا ان الجسم يؤثر أيضاً في العقل . والواقع ان الجسم

والعقل كتلة واحـدة لا يمكننا فصل أحدهما من الآخر فالتفكير يحتاج الى الاثنين معاً

وكل خاطر أو فكرة تمر بذهننا مهما كان مرورها خفيفاً لا بد لها من ان تحدث لنا عاطفة تؤثر فينا . وهذه العاطفة تنتهي برغبة وارادة . وقد تدق علينا هـذه الرغبات فلا نستطيع ان نتبينها فى أنفسنا . ولـكن وجودها لا يمكن الشك فيه

مثال ذلك أننا نسمع قصة يقصها علينا أحد الناس ولا نظن أننا سمعنا أسخف منها ونقوم وكأننا قد نسيناها . فاذا نمنا في الليـل حلمنا بشيء عنها يدلنا على أننا لم ننس شيئاً منها .. وذلك لأن القصة أحـدثت عاطفة اندست في العقل الباطن واتصلت بعواطف اخرى لا يسمح لنا وعينا باظهارها . ثم انتهزت فرصة النوم فبرزت

ولهذا العقل سلطان علينا فهو الذي يقرر ميولنا وأمزجتنا ويعمل لرقينا أو انحطاطنا وسدادنا أو خطئنا ولـكن لنا نحن عليـه سلطاناً أيضاً . فنحن نستطيع أن نجعله يخدم أغراضنا بما نوحيه اليه من الخواطر والافكار . وقد نتوهم أنه لا يطيعنا إذ أنه خارج عن وعينا ولـكن خروجه عن وعينا لا يدل على أنه خارج عن رقابتنا كل الخروج ثم للتمرين فائدته أيضاً في تذليله لمصالحنا

وهناك أمثلة عديدة تدلنا على طاعته . فقد تكون عادتنا مثلا ان نستيقظ كل يوم في الساعة السادسة. ثم يحدث ان نحتاج الى الاستيقاظ في الساعة الرابعة حتى ندرك قطاراً يقوم في الساعة الخامسة . فكل ما نعمله أننا قبل النوم ننوي النهوض الساعة الرابعة ثم ننام . فالرغبة في النهوض قد اندست في العقل الباطن الذي لا يهمل تنفيـذها .

فنحن ننام مرتاحين ولكنه هو يقظ فلا نبلغ الساعة المعينة للنهوض وهي التي تخالف عادتنا حتى نتقلب ونقوم هاجسين بالميعاد . وقد يعين لنا ميعاد نلتقي فيه بأحد أصدقائنا بعد خمسة أو ستة أيام. وهذا الميعاد ننساه بالطبع لانه لو بقي ماثلاً في ذاكرتنا هذه المدة الطويلة لأخل بأعمالنا وتفكيرنا . ولكننا عند ما نقترب من ساعة الميعاد يطفر عقلنا الباطن الى الامام ويذكرنا

وخلاصة كلامنا :

١ً ـ ان العقل الباطن يختزن ذكرياتنا لكيلا تعوق العقل الواعي في عمله ثم يقدمها لنا عند الحاجة

٢ً ـ انه يطيعنا فيؤدي ما نطالبه منه وتزداد هذه الطاعة بالتمرين حتى ان ابن عربي قال انه يمكننا أن نحلم ما نشاء في النوم

٣ً ـ ان جميع الخواطر والافكار تؤثر في أجسامنا كخاطر الحياء يجعل الدم يذهب الى الوجنتين

فما هي عبرة ذلك كله ؟

عبرته أنه يمكننا أن نتسلط بأفكارنا على أجسامنا فنوحي مثلاً الى عقلنا خواطر عن الصحة والنجاح فيصح جسمنا وننجح في عملنا . فأنت تعرف مثلاً أن الخوف يقتل بعض النـاس . والخوف فكر أو خاطر . فكونه يقتل الناس برهان قوي جداً على أن العقل يؤثر في الجسم الى حد الموت . فقد حدث مثلاً في اليابان عند حدوث الزلزال الاخير أن وُجد ناس قد ماتوا لا لأنهم جرحوا بل لشدة ما استولى عليهم من الرعب . وبعبارة أخرى نقول انهم ماتوا بالوهم فاذا كان توهم الموت يحدث الموت واذا كان الفكر يقتل الجسم

فلماذا لا يحدث توهم الصحة هذه الصحة المرغوب فيها ولماذا لا يحدث توهم النجاح هذا النجاح الذي نرغب فيه ؟

يروى عن امرأة أنها كانت تخاف الضفادع . فعمد صديق الى خرقة فلفها ثم ألقاها على صدرها صائحاً : هذه ضفدع . فماتت المرأة

ومعنى هذا أنه أوحي اليها أن هذه الخرقة ضفدع فصدقت وعمل الفكر في الجسم فأوقف حركة القلب فقتلها

ومما يروى عن شفاء المرضى الذين يذهبون الى الكنائس ويتشفعون بالاولياء والقديسين أنهم لا يشفون فقط من أمراضهم بل أيضاً يجدون على أجسادهم شارة الصليب مرسومة على الجسم كالجرح أو كندب الجرح . وهذا يحدث بايحاء سابق يوحيه الكاهن الى المريض بأنه بعد الصلاة والشفاء سيجد صليباً في هذا المكان أو ذاك من جسمه . فيتأثر المريض ويعمل عقله الباطن في احداث هذا الجرح . وهذا بالطبع شيء يجب ألا يصدق حتى يرى عياناً إذ لا تكفي فيه الرواية . ولكن يجب مع ذلك أن نعرف أن احداث الجرح على الجلد بقوة الايحاء الذاتي ليس أخطر من احداث القيء أو الاسهال أو الموت من إيحاء الخوف أو الاشمئزاز . واذا كان هناك فرق فهو فرق في الدرجة وليس في النوع

وحادثة الفتاة تريزا نومان الالمانية من أغرب ما ذكر وحقق من هذا النوع . وأقول « حُقق » لان جامعة ايرلانجن أوفدت لجنة من الاطباء والاساتذة لتحقيق ما يجري لهذه الفتاة التي ما تزال حية فلم يجدوا في كل ما يحدث لها غشاً أو خداعاً منها أو من أحد أقاربها

وخلاصة قصة هــذه الفتاة أنها أصيبت عقب حريق شب في المصنع الذي كانت تعمل فيه بغيبوبة دامت معها عدة أشهر وخرجت منها وهي مصابة بالشلل في الساقين وبالعمى . ودام العمى ثلاث سنوات ثم شفيت منه ورأت رؤيا غريبــة فهمت منها أنها شفيت من الشلل ولــكنها ستتألم آلاماً عظيمة . ونهضت من فراشها بالفعل وسارت على قدميها

وفي يوم الجمعة الـكبيرة السابقة لعيد القيامة أخــذت تمثل في جسمها محاكمة المسيـح وصلبه فبدت في يديها وقدميها جروح عميقة نافذة كانت تتألم منها كثيراً وكانت الدموع تنزل من عينيها وهي دم خالص . وأخيراً يتكون تحت القلب جرح واسع يدمى ولا تزال كذلك حتى يوم السبت حين تشرع الجروح تلتئم وتستفيق الفتاة وتعود الى نفسها . وبعد ذلك صارت تمثل هذه الآلام كل يوم جمعة على طول السنة

وتفسير هذه الحادثة أن الفتاة مدة مرضها السابق عقب الحريق أوحت الى نفسها أن المســيـح سيشفيها ولشدة رغبتها في الشفاء أحبت المسيـح حباً عظيماً ثم لشدة هذا الحب تمثلته في نفسها فصار عقلها الباطن يحكي ما حدث له مما تعلمته وقرأته عن حياته في جسمها هي نفسها . واشتد ايحاء العقل الباطن حتى مثل في جسمها آلام الصلب

ومن هنا نفهم معنى الـكرامات التي تنسب الى الاولياء والصالحين والآثار المقدسة والرقي والطلاسم المـكتوبة ونحو ذلك . فان كثيرين من المرضى يشفون لانهم يؤمنون بالشفاء اذا تمسحوا بقبر

هذا الولي أو اذا حملوا طلسما مكتوباً أو اذا رقاهم رجل له شهرة أو مقام. وشفاؤهم يرجع في الحقيقة الى ايمانهم أي الى أنهم قد أوحوا الى أنفسهم هذا الشفاء اذا هم تمسحوا . وهذا الايحاء اندس الى العقل الباطن الذي تسلط على العضو المريض ووجهه نحو البرء

ولكن هذا الايحاء يمكننا كلنا أن نعمله لانفسنا أو لغيرنا

وكان كويه النفسلوجي الفرنسي يعمل هذا الايحاء ويجعل المريض يمارسه بنفسه كما سنرى في الفصل الثاني

طريقة الايحاء أو التلقين

لو قلنا لرجل صحيح الجسم سليم الاعضاء انه مريض وكان لقولنا من الوجاهة وصدق اللهجة ما يؤثر فيه ويمنع عنه الشك بالمزاح لاعتقد بمرضه وشعر بعد قليل بالمرض الذي عيناه له . وخاصة اذا كان المتكلم طبيباً له نفوذ الحرفة

ولو قلنا لرجل مريض ان وجهه كل يوم يتورد بالدم وان قوته تزداد ونور الصحة يتألق في محياه وكررنا له ذلك في لهجة صادقة لكان لكلامنا تأثير فيه من حيث شفاؤه وخاصة اذا كان المتكلم طبيباً أيضاً

فالعقائد تقوم في النفس بالتلقين والايحاء . وهي في ذلك تختلف من المعارف . فالمعرفة عقل وتجربة واختبار . ولكن العقيده تلقين وإيحاء وتكرار . فالناس ينشئون على عقائد آبائهم لأنهم يلقنونها وهم صغار وتكرر أمامهم مرات حتى ترسخ في عقولهم الباطنة ويصير نزعها أشق عليهم من الموت . واذا أردت ان تغري أحداً بأحد فليس سبيلك الى ذلك العقل وانما التكرار . وكذلك اذا أردت أن تقنع أحداً برأيك فسبيلك الى ذلك التكرار وليس المناقشة المنطقية وليست اعلانات التجار التي نراها كل يوم في الصحف سوى

نوع من التلقين والايحاء غايته ايجاد العقيدة بالتكرار في نفس القارىء بأن الشيء المعلن عنه هو أحسن الاشياء لـكي يشتريها

وقد نبتت النفسلوجية الحديثة من طريقة الاستهواء أي التنويم المغنطيسي . فقد وجد الذين مارسوا هذا التنويم أن المريض اذا قيل له وهو نائم : أنت شفيت . قام وهو يتوهم شفاءه ويؤمن به وينتهي ايمانه بأنه يشفى شفاءً حقيقياً في كثير من الحالات

وقد شاع الاستهواء منذ خمسين سـنة ولحظ منه الذين مارسوه أن للانسان عقلين: عقل واع ، وعقل باطن. وانه مدة الاستهواء يكون العقل الواعي نائماً ويستيقظ العقل الباطن . وهذا العقل يصدق كل ما يقال له . فلو قيل للنائم أنت في بحر . عمد الى نفسه فحرك أعضاءه وضرب بذراعيه يشق الموج . واذا قيـل له والوقت بارد : ان الحر قد اشتد . صدق ذلك حتى يلهث ويعرق وينفخ مع ان الحقيقة أن الوقت بارد . وليس فعل الايحاء مقصوراً على وقت الاستهواء . فقد يحدث مثـلاً أن تقول للنائم : غداً تقصد الى فلان لزيارته . فلا تأتي الساعة المضروبة للزيارة حتى يكون قد ذهب وتعلل بأية علة للذهاب

ومما حدث في نانسي بفرنسا حيث يمارس الاستهواء بكثرة أن قيل لاحد النائمين أنه نابليون . وقد توهم بالطبع طول مدة نومه أنه نابليون . وليس في هذا غرابة اذا عرفنا أن العقل الباطن يصدق كل ما يقال له وقت الاستهواء . ولـكنه بعد ما استيقظ ونسي بالطبع كل ما قيل له مدة النوم وقف فجأة بين اخوانه بهيئة نابليون كما ترى في الصور ووضع احدى ذراعيه داخل صدرته كما كان يفعل نابليون

ثم تعلل لهذا الموقف بقوله كأنه يستغرب : وماذا نفعل الآن ؟

ففي التنويم المغنطيسي نصدق كل ما يقال لنا ويستمر التصديق حتى بعد التنويم . واذا نظرنا الى الطريقة التي كانت تتبع في هذا التنويم عرفنا أنه يمكن أن نجعل الاستهواء (أي التنويم المغنطيسي) ذاتياً.

فقد كان الممارس للتنويم يأتي بالشخص المراد تنويمه أي استهواؤه ثم يجعله ينطرح ثم يجعله ينظر الى جسم لامع مثل كرة من البلور أو نحو ذلك ثم يلقنه هذه العبارة : أنت نائم . أنت نمت

ويكرر ذلك عليـه نحو ٢٠ أو ٣٠ مرة فينام العقل الواعي . ولـكن العقل الباطن يبقى منتبهاً . فمهما قاله المنوم يصدقه النائم

وقد مارس كويه طريقة الاستهواء الذاتي . فبدلاً من أن يقول للمريض بعد أن ينومه : أنت شفيت . يجعل المريض نفسه يقول لنفسه : أنا شفيت

وقد شاع الاستهواء الذاتي وهو يقوم على تكرار التلقين بعد أن يضع الانسان نفسه في حال استرخاء ينظر فيها الى جسم لامع حتى يتخدر العقل الواعي وينطلق العقل الباطن . ويكون ذلك أوفق قبيل النوم أو بعده . فيقول الانسان لنفسه ا أنا سليم ليس بي مرض . ويكرر هذا القول نحو ٢٠ مرة

فاذا واظب على ذلك اعتقد العقل الباطن هذه العقيدة وصار يؤثر في أعضائه أثراً حسناً ويوجهها كلها نحو الصحة . ثم هو في الوقت نفسه يوجه الشخص نحو كل ما من شأنه رفع الصحة ويقويها في الطعام والنوم والشراب والعمل

انما يجب هنا أن نلاحظ أنه عند استهواء أنفسنا يجب أن نتوقى الامر والمنع والكبت فلا نقول : يجب أن أكون سليماً . بل نقول : أنا سليم . فنضع الاثبات والتصوير مكان الامر . أي ان الاستهواء يكون بالتوهم أي نتوهم الصحة مكان المرض

ولكي ندرك قيمة ذلك يمكننا أن نتذكر الضحك . فانه اذا اشتدت بنا عاطفة السرور ومنعناها من أن تستحيل الى ضحك انفجرت بنا قنقهه بدل الضحك . ولكن اذا توهمنا شيئاً غير السرور كالحزن أو الغضب زالت عنا الرغبة في الضحك

فلكي نستهوي أنفسنا يجب ألا نلتجأ الى الجبر والحبس والكبت وانما نعمد الى التخيل والتوهم فنضع في ذهننا صورة الصحة مكان المرض . ونتخيل أنفسنا أصحاء أقوياء

ولنفرض أن شاباً وقع في عادة سيئة تملكته . فسبيل خلاصه منها أن يستهوي نفسه في كل فرصة يستطيع أن يسترخي فيها ويلقن نفسه عبارة مؤداها : أنا أكره هذه العادة عادة . . . (وهنا يعينها) ولا يزال يكرر ذلك حتى تنطبع في ذهنه عقيدة تتملكه بكراهة هذه العادة

الاستهواء والتحليل

لكل جديد طلاوته ولكل اكتشاف مبالغات تنسب اليه عند البداية . والنفسلوجية الحديثة جديدة والاقبال عليها عظيم والايمان بها أعظم . ففيها الآن كتب أميركية يباع الكتاب منها بأقل من خمسة قروش وفيها كتب أخرى ثقيلة عليها وقار الدرس يباع الكتاب بها بأكثر من جنيه

وقد شاعت المعالجة بطرقها أو بالاحرى بطريقتها : طريقة الاستهواء القديمة التي تعتمد على التلقين والايحاء وطريقة التحليل التي تعتمد على السؤال والجواب حتى يستخرج المحلل ما في العقل الباطن للمريض من النيات والاغراض التي يخفيها

ولكن الآمال الاولى التي كانت معقودة بهذا العلم الحديث قد عراها الاعتدال بعد الغلو . فمن يقرأ ما كتبه كويه أو بودوان يعتقد أن النفسلوجية قادرة على شفاء كل مرض . ولكن الذين مارسوا التحليل والاستهواء يرون أنفسهم أميل الى التوسط والاعتدال مما كانوا قبلا

فهناك أمراض عضوية مثل الحصاة في الكلية لا يمكن أي استهواء أو تحليل أن يزيلها . واذا بلغ التدرن درجته الاخيرة فمن العبث

أن ينصح للمريض بأن يعتمد على الاستهواء

فالمرض اذا كان عضوياً أي انه محسوس متحيز في عضو فالارجح ان الاستهواء يزيله اذا كان مبتدئاً ولكنه لا يؤثر فيه البتة اذا تقدم . وعندئذ يصبح من اختصاص الطبيب . ولكن الابتداء والتقدم لفظتان تقبلان المط فان الورم قد يتقدم ومع ذلك يخضع للاستهواء ويزول . والصحة قد تعتل اعتلالاً عمومياً ثم يصح الجسم وينشط بالايحاء

ولكن الامراض التي ينجع فيها الاستهواء والتحليل هي تلك الامراض النفسية التي تنتج عن عقيدة رسخت في العقل الباطن وأصابت النفس فأثرت هذه في الجسم . وذلك كالصبي يعتقد أنه لا يفهم الحساب ويفشل كل مرة في الامتحان . أو كالرجل يريد أن ينتحر ويشعر بهذه الشهوة تتملكه أو الفتاة تتوهم ان أحد الناس قد انتهك حرمتها أو أي واحد منا يصاب بالكابوس أو يتوهم انه ملك أو نحو ذلك

فمن حيث المعالجة تقتصر النفسلوجية الحديثة على الامراض النفسية التي تصيب النفس . ولا يهمنا بعد ذلك أن تؤثر النفس في الجسم الا من حيث البحث عن ماهيــة المرض هل هو جسماني في الاصل كمكروب السفلس اذا بلغ الدماغ وأحدث فيه الجروح أم هل هو نفساني حدث بعقيدة سابقة قد نسيها المريض نفسه وأحدث هذا التأثير في العقل ثم في الجسم

ولكن الامراض الجسمانية نفسها كما أوضحناه آنفاً من تأثير العقل في الجسم تنقاد الى حد كبير للاستهواء بالايحاء والتلقين

والآن يجب أن ننظر في الطريقتين :

١ - طريقة الاستهواء تنحصر في أن يلقن أحد الناس المريض أو يلقن المريض نفسه . فاذا كان يصاب بكابوس مزعج فانه يقال له أو يقول لنفسه قبل النوم : أنا أنام نوماً هادئاً لا أحلم فيه البتة . ويكرر هذا القول نحو ٢٠ مرة

وتعليل هذا العلاج ان الكابوس هو نتيجة عقيدة سابقة لحادثة حدثت ربما يكون المريض نفسه قد نسيها أو نتيجة هموم غالبة في الوقت الحاضر . فهو يحاربها بعقيدة أخرى تكافحها

٢ - أما الطريقة الثانية فهي التحليل وذلك بأن يحلل الكابوس وتذكر تفاصيله ثم يذكر صاحبه ما يمر بذهنه من الخواطر وهو يذكر التفاصيل وأية عواطف يستثيرها هذا الذكر . فاذا وقف على أصل الكابوس - والاغلب انه يجد هذا الاصل في همومه الراهنة أو في حادثة قديمة وقعت في صباه - فانه يشفى منه

والفرق بين الطريقتين ان الاولى أي الاستهواء أشبه شيء بالصباغ نصبغ به الحائط فوق الصبغة القذرة السابقة . والصباغ الجديد يخفي الصبغة القديمة مدة غير قليلة . ولكنه قد يجف ويقع وتعود الصبغة القديمة الى الظهور . أما في التحليل فاننا نمحو الصبغة القديمة ولا نضع شيئاً في مكانها . ولذلك فان الكابوس قد يعود بعد الاستهواء ولكنه لا يعود بعد التحليل

وانما نلجأ الى الاستهواء اذا عجزنا عن التحليل

ومع ذلك ليس التحليل ترياقاً لكل داء نفساني . وقد رأى القارىء في فصل « حلم الانتحار » ان الدكتور رفرز قد حلل هذا

الحلم تحليلاً وافياً ثم بعد ذلك لم يقنع بهذا التحليل بل نصح للمريض بأن يترك الطب ويشتغل بصحة المدن وصيانة أنابيب الماء وبالوعات الكنف حتى لا يرى جثة

ولا بد ان القارىء قد لحظ ان المعالجة بالاستهواء تنحصر في الالتجاء الى العقل الباطن . أما المعالجة بالتحليل فتنحصر في الالتجاء الى العقل الواعي . ففي الاولى نحاول أن نوهم المريض بأنه شفي وشفاؤه يتوقف على قوة ايهامنا وايحائنا له بالشفاء . أما في التحليل فاننا نواجه مع المريض حقيقة مرضه ونكشفه له ونشركه معنا في فهم علته وذلك باستثارة خواطره التي نعرف منها الصلات الخفية التي تربط تفاصيل الحلم

فالطريقة الاولى تنفع المريض الجاهل أما الثانية فيمكن استعمالها مع الشاب الراقي . واذا اخفقت الثانية عدنا الى الاولى

كيف ننتفع بالعقل الباطن

ان درسنا للعقل الباطن في أنفسنا وفي غيرنا يقفنا على كنه النفس البشرية ماضيها وحاضرها ويجعلنا نفهم أنفسنا ونعرف مكنوناتها . فبالاحلام نعرف الهموم السخيفة والجدية التي نهتم بها ولا ندري أحياناً أننا نهتم بها . وبالخواطر الطارئة علينا في يقظتنا نعرف آمالنا وما تتشوف اليه نفوسنا

وفي الاحلام والخواطر نرى قوة الليبيدو وتساميه ومحاولته أن يرقى فندرك من ذلك ان الرقي حاجة من حاجات النفس البشرية واننا لن نكون سعداء حتى نداب في ترقية انفسنا . فما دمنا كل يوم نتدرج نحو الرقي فنحن نشعر بهناءة العيش فاذا ما ركدنا بدأت نفوسنا تمرض حتى لقد نحب الموت عندئذ ونفكر في الانتحار

والرقي هو الطبيعة الغالبة للنفس البشرية كما أنه الطبيعة الغالبة لتطور الاحياء . فان التطور هو الارتقاء كما سبق ان ذكرنا في أول هذا الكتاب . ولكن كما يحدث في التطور ان الحيوان ينحط وينقرض كذلك يحدث للنفس البشرية أن تمرض وتموت : وذلك لانها تأبى أن تتطور

فالطبيعة الغالبة لنفوسنا التي يثبتها التطور كما يثبتها العقل الباطن

في أحلامه وخواطره هي الرقي . فنحن أبداً نتسامى نحو الجمال والعلم والادب والثروة والقوة والشرف . فما دمنا في هذا التسامي فنحن سعداء لاننا نجري على مقتضى طبيعتنا التي اذا خالفناها وركدنا بدأنا نحس بالشقاء

فالركود علة الشقاء . وقد يأتي عفواً كما يأتي التسامي عفواً . فذلك الطبيب الذي كان يحلم بأنه يهم بأن يقتل نفسه كان يشعر بشقائه لأنه لم يستطع أن ينزع عن نفسه ذكرى الدماء والجروح والآلام في الحرب ولكن بذرة التسامي ظهرت له في آخر الحلم حين خرج له ابنه وذكره بالواجب الابوي فكف عن الانتحار . فالطفل رمز للمستقبل الذي يجب أن نعيش كلنا له وننسى الماضي من أجله

وكما نعرف كنه أنفسنا وكنه مطامعنا وآمالنا كذلك نعرف نيات الآخرين نحونا والعلل التي يرجع اليها مسلكهم . فانه ما من كلمة أو حركة نفعلها على غير وعي منا الا ولها سبب في العقل الباطن . وما من زلة يزل فيها القلم أو القدم أو اللسان الا ولها علة ترجع الى عاطفة ما في العقل الباطن

وبهذه المناسبة نروي قصة لفرود عمدة هذا العلم . قال ما خلاصته :

لغرفة العيادة عندي بابان بينهما فراغ . وذلك لكي يحجز الصوت بين من في العيادة ومن في خارجها . فاذا جاءتني سيدة تسمع عن اسمي وعن هذا العلم الذي اشتهرت به فان الاحترام لي يملأ صدرها فهي تفتح الباب الاول بعناية وتقفله بهدوء . ثم تفتح الباب الثاني الذي يفضي الى الغرفة فلا تجد من الأثاث ما يحقق

ظنها في الفخامة والضخامة فتترك الباب الثاني دون أن تقفله حتى أحتاج الى تنبيهها الى اقفاله . وانما أهملت اقفال هذا الباب لما سبق الى عقلها الباطن من احترام الناس باحترام الوسط المحيط بهم

وهذا هو ما يجده كل منا في معاملات الناس ففي حركاتهم نتوسم الاحترام لنا أو الاحتقار اذا كنا نجيد ملاحظة ملامحهم التي هي عنوان العقل الباطن وما يضمره لنا . فهذا يسمع عن نكبة وقعت بنا فيضحك وآخر يسمع القصة نفسها فيتأسف . وكل منهما يعبر عن نيته نحونا . وقد لا يتضح الضحك أو الاسف بعلامات ظاهرة ولكنه يستشف في الملامح

وكثيراً ما « نحس » بقلوبنا ان فلاناً هذا يحبنا أو يكرهنالأول رؤيته وانما يأتي هذا الاحساس من اشارات وحركات في تقاسيم الوجه تدلنا دلالة خفية على ما يكنه في عقله الباطن من الحب أو الكره لنا . وهي دلالة لا يستطيع اخفاءها الا بالتفات كبير . وعندئذ تبدو زلات وهفوات تدل على أنه يتكلف

ونحن نعرف أيضاً ان العقل الباطن اذا لم يكن على وفاق في أغراضه مع العقل الواعي حدثت لنا العصبية وكثرت الزلات والفلتات . وبتحليل خواطرنا وأحلامنا نقف على أصل الخلاف . ولكننا بالتسامي نستطيع ان نرفع أغراض العقل الباطن الى ما يوافق عقلنا الواعي ونزيل بذلك هذا الخلاف . وبالتلقين نجعل العقل الباطن في خدمتنا ونجنده حتى يسعى لتحقيق أغراضنا

الاستهواء والنجاح

كان فرح أنطون فقيد الادب المصري يتوهم أنه لا بد يوماً ما من أن يعثر بعربة تكسر له ساقاً أو تفعل به ما هو شر من ذلك . وقد تحقق وهمه في أحد الايام كما شاء عقله الباطن . وذلك لان هذا الوهم كان قد اندس في عقله الباطن ولهذا العقل سلطان على أعضاء الحركة حتى تمكن مع الوعي واليقظة أن يُزل القدم نحو العربة . كما لو قلنا للبهلوان الذي يمشي على الحبل أنه سيقع .فان هذا الوهم يتسرب الى عقله الباطن ويخيل له السقوط . وبعد الفكرة أي الخيال تنشأ الرغبة وان كانت رغبة غير واعية . وعندئذ يغلب على هذا البهلوان المدرب أن يسقط

وقد سبق أن قلنا ان العقل الباطن يعبر عن المعاني المجردة بخيالات محسوسة . ففي الحلم يكون الرجل العظيم ضخماً والرجل الحقير صغير الجسم . فاذا قلنا للماشي على الحبل أنه سيسقط تخيل العقل الباطن هيئة السقوط فيما يحدث للساقين من الزلل والتخبل . ولما كان من طبيعة الانسان أن يحاكي الصورة التي يراها وهو لا يدري فاننا نحاكي صورة السقوط في حركتنا ونسقط بالفعل

وهذه المحاكاة كثيرة كلنا يفاجىء نفسه وهو يحاكي غيره على

غير وعي منه . مثال ذلك اننا نرى رجلاً يسير على حبل أو سور دقيق فنفاجىء أنفسنا ونحن نتحرك حركاته كأننا نحن القائمون دونه بالسير على الحبل أو السور . ونحن لا نحاكيه على وعي ودراية بل على غير وعي . أي ان العقل الباطن هو الذي يقوم بهذه المحاكاة

وقد سبق ان فهمنا أن العقل الباطن يصور لنا المعاني والافكار المجردة في خيال محسوس . فالسقوط في نظره ليس مصدراً معنوياً بل هو رجل يسقط . فاذا تخيلنا هـذا الرجل يسقط حاكيناه في السقوط على غير وعي فنسقط بالفعل

ومن هنا نعرف أن الرجل الذي يتخيل النجاح ينجح والرجل الذي يتخيل الفشل يفشل لان كلاً منهما يرسم صورة في عقله الباطن يبقى طول حياته يحاكيها وهو لا يدري . فالرجل الناجح يرسم في عقله الباطن صور النجاح من استقامة في المعاملة واعتدال في المطعم والمشرب واقتصاد في النفقات ومجاملة مع الاصدقاء وهو لرغبته في النجاح يستهوي نفسه على غير وعي منه حتى يحب هذه الصفات نفسها فيمارسها بلا أدنى تكلف أو مشقة . أما الرجل الذي يتخيل الفشل فانه يرسم في عقله الباطن صوراً للخوف والاستهتار والاهمال فيستهوي نفسه على غير وعي منه حتى يحب هذه الصفات ويمارسها

ولكن قد يسأل القارىء هنا : كيف نحب صفات مكروهة وكيف يشتغل العقل بها مع أنها مكروهة ؟

وهنا نحتاج الى أن نعود الى أطوار التفكير فهي كما سبق أن قلنا : معرفة ثم عاطفة ثم نزوع أي رغبة

وهذه المعرفة قد تأتي عن طريق الحواس أو عن طريق

الخواطر . فأنا أشعر بالخوف اذا رأت عيناي رجلاً مقتولاً أو اذا خطر هذا الخاطر في بالي (عقلي الباطن) فأنا أكره الخوف ولكني لا أمالك من أن تخطر ببالي الخواطر عن الحادثة التي رأيتها فتحدث فيَّ عاطفة الخوف . وتبقى الخواطر تجري برأسي على غير رغبتي

وعلى هذا النسق يحدث الفشل . فانه غرسٌ قد نبت في العقل الباطن وأخذ ينمو ويزكو خواطر عفوية تهيء صاحبها للفشل . فكما كان فرح أنطون يخشى الزلل أمام احدى العربات ثم زلت قدمه بالعقل الباطن وكما ان البهلوان يقع اذا أوهمته أنه سيقع كذلك من توهم الفشل فقد دخل في أول درجات الفشل

فالبهلوان يقع لانه قد أوحي اليه الوقوع

ونحن نفشل أو ننجح لاننا قد أوحينا الى أنفسنا الفشل أو النجاح

وهذا هو معنى الايمان وقوته . لان الايمان يوحي الى النفس الثقة والنجاح فهي تسير على هذه الهداية الى الغاية . وليس الايمان سوى العقيدة التي تندس الى العقل الباطن . وعلى ذلك يجب علينا اذا أردنا أن ننجح أن نوحي الى أنفسنا هذه العقيدة

ونحن نعرف أننا نحدث في الناس عقائد مختلفة بما نقوله لهم فلماذا لا نحدث هذه العقائد لانفسنا بما نقوله ونكرره لانفسنا ؟

ان كل كلمة ننطق بها لن تذهب هباء لانها قوة من قوى هذا الكون . فهي تحدث معرفة ثم عاطفة ثم رغبة . فاذا كررنا على أنفسنا عبارة كوبه :

« انا في تحسن مستمر كل يوم من كل ناحية »

وخاصة في أوقات الغفوة الاولى التي قبل النوم أو الغفوة الاخيرة بعد النوم أو عند ما نسترخي أي حين يكون العقل الباطن متنبهاً حتى تنطبع عليه هذه الخواطر حدثت في نفوسنا الرغبة في التحسن والارتقاء وطبعت أذواقنا بهذه الرغبة فلا نمارس من الاعمال الا ما وافق نجاحنا

ومعنى ذلك أننا نستهوي انفسنا الى النجاح بالايحاء والتلقين لانه ما دام الاستهواء حقيقة نراها في غيرنا كذلك هو حقيقة نراها في أنفسنا . فبالاستهواء الذاتي يمكننا أن نوجه جهودنا الى الغاية التي نرجو تحقيقها . وقد يكون هذا الاستهواء ايحاء بالتلقين أو ايحاء بالخيال حين نترك الخواطر تنساب فنتخيل انفسنا في مراكز سامية من حيث المال والوجاهة ونحو ذلك

وهذا الاستهواء يأتي عفواً عند العظماء . فنابليون لم يكن يفكر قط في الهزيمة وهو لو فعل لحدث له ما يحدث للماشي على الحبل اذا خطر بباله السقوط . وقد دب في قلبه الشك مرة واحدة وكان ذلك في معركة واترلو التي انهزم فيها . ونجاح الانبياء يعزى الى قوة عقيدتهم التي لا يعتريها الشك أصلا فجميع خواطرهم لذلك عن النجاح . ولذلك فهم أعرف الناس بقوة العقيدة

وقد قيل ان أماني الصبا هي حقائق الرجولة . وهـذه الاماني هي بالطبع الخواطر الطارئة مدة الصبا تستحيل الى خيالات في العقل الباطل تحدث رغبات تؤدى بأدنى مجهود

ولسنا نعني ان الاستهواء هو كل ما نحتاج اليه للنبوغ والعبقرية

فان لذلك شروطاً اخرى سيراها القارىء في فصل قادم . ولكننا نعني ان الاستهواء من أهم هذه الشروط

ومجرد الرغبة الواعية في النجاح لاتؤدي الىالنجاح وانما العبرة بأن تندس هذه الرغبة الى العقل الباطن حتى يكون عملها عفواً لا تكلف فيه . ولا بأس من أن نبتدىء بوعي ودراية ولكن يجب أن نحدث للعقل الباطن خيالات وخواطر وتلقينات حتى تتجه قواه نحو تحقيق النجاح لأنه عندئذ لا يكلفنا أدنى مجهود محسوس كالرجل الذي يعزف على أوتار الكمنجة يبتدىء واعياً يدري ما يعمل ويتعثر ويراجع نفسه حتى اذا اتقن العزف صار عزفه عفوياً لا يتكلف فهو يكلمك وهو يعزف . كذلك يحتاج الناجح الى أن تتجه قواه الى النجاح وهو لا يدري بهذا الاتجاه لأن عقله الباطن يقوم به حتى يتوفر على عمله اليومي بعقله الواعي

النوم

من يتأمل النوم لأول وهلة يظن أنه عمل فسيولوجي محض أولى ان يكون البحث فيه من اختصاص الطبيب وأنه يكاد لا يكون له أدنى علاقة بالنفسلوجية

ولكن اذا نحن تعمقنا في بحثه ألفينا فيه من الصفات الذهنية ما هو أحرى بأن يتعلق بالنفسلوجية منه بالطب . ففيه الاحلام وفيه السكابوس وفيه المشي والحركة ثم فيه الاستعداد للايحاء

وليس النوم نتيجة الاعياء فقط . فانه نتيجة الايحاء أيضاً . فنحن لكي ننام نحتاج عادة الى جملة أشياء توحي الينا النوم مثل الظلام ونزع الملابس العادية والسكون والانطراح على الفراش . وقد ننام أحياناً ونحن لا نشعر بأي تعب كما أننا قد نشعر بالتعب ثم مع ذلك لا ننام . ومما يقوم دليلا على ان في النوم عنصراً كبيراً من الايحاء أننا نميز وقت النوم بين الاصوات فصوت الترام بل صخبه لا يوقظنا ولكن نقرة ضعيفة من الخادم على الباب تنبهنا . وقد يكون نوم الأم ثقيلاً ومع ذلك اذا بكى طفلها بكاء ضعيفاً استيقظت له. ثم هناك أيضاً مشابهة بين نوم الاستهواء والنوم الطبيعي فقد نستهوي شخصاً فينام ونطلب منه أن يستيقظ في ساعة نعينها له

فيستيقظ . وكذلك النائم يمكنه قبل النوم أن يوحي الى نفسه الاستيقاظ في ساعة معينة فيستيقظ . على ان النائم بالاستهواء أطوع للايحاء في هذه الحالة من النائم نوماً طبيعياً . ولكن الفرق بين الاثنين هو فرق في الدرجة وليس في النوع . ومما يزيد المشابهة بين النومين ان الشك في الحالتين يمنع النوم . فاننا اذا أصابنا سهاد ثم شككنا في أننا سننام زال عنا النوم الطبيعي . وكذلك اذا شككنا في قوة الرجل الذي يستهوينا لم يستطع إنامتنا ولو تكلفنا نحن هذا النوم واجتهدنا في جلبه . بل الاجتهاد في جلب النوم هو باختبار كل واحد منا أضمن طريقة لمنعه

وهذه الملاحظة الاخيرة تبصرنا بمعنى النوم . اذ هو في الواقع طريقة يستجم بها العقل الواعي قوته لانه لما كان أحدث عقولنا فهو أقلها استقراراً وتأصلاً في نفوسنا وأسرعها تعباً واعياء من العمل فهو يحتاج الى الاستجمام والراحة أكثر من غيره أي أكثر من عقولنا القديمة . ولذلك فاننا اذا جعلنا الوعي طريقة لجلب النوم فاننا بهذا الوعي نفسه نمنع النوم . لان النوم هو ازالة الوعي . فاذا اجتهدنا في جلب النوم أيقظنا وعينا ولذلك لا ننام

فما هي المهمة التي يؤديها لنا النوم ؟

هي اراحة الكفايات الجديدة في الانسان . وأجدّ هذه الكفايات هو العقل الواعي . لانها لما كانت جديدة فان التعب يسرع اليها . ولذلك فان كفاياتنا القديمة كلها لا تنام أو لا يصيبها النوم الا باغفاء بسيط أو هو في الواقع تراخٍ . فنحن نهضم الطعام في نومنا وقد تستيقظ غريزتنا الجنسية وقت النوم وأيضاً عقلنا الباطن لا ينام

بدليل الاحلام التي نراها . وهذا التدليل يتسق ومانراه في الطبيعة من ان الحيوانات القديمة التي مضت عليها مدة طويلة جداً وهي لا تتطور لا تنام . مثال ذلك النملة والارضة فانهما لا تنامان مثلما ننام نحن ثماني ساعات كل يوم بل هي تقنع بمدة صغيرة جداً بل بعضهم يعتقد انها لا تنام البتة

وهنا يمكننا أن نقف ونتساءل : هل يستمر الناس على النوم في المستقبل البعيد حين يكون العقل الواعي قد تأصل في النفس وصارت له فروع وجذور ؟ والجواب عن ذلك أننا اذا لم تنشأ لنا كفايات جديدة غير هذا العقل الواعي فالارجح اننا نستغني عن النوم . أما اذا تطورنا ونشأت لنا كفايات جديدة فانها تحتاج الى النوم . وهذا الفرض الاخير هو الارجح

ومما ذكرناه نستنتج جملة استنتاجات :

فمن ذلك أن الارق يمكن معالجته بأن نستسلم لخواطر لذيذة غير منبهة لان اللذة نفسها اذا اشتدت نبهت فأيقظت . ولكن نختار من الخواطر تلك التي تخطر في بالنا على غير وعي منا في النهار ولا تكون مؤلمة أو منبهة . لان هذه الخواطر هي من العقل الباطن فاذا استسلمنا لها كان ذلك منا بمثابة إنامة العقل الواعي وايقاظ العقل الباطن عقل الاحلام فيطغى على وعينا وننام

وأحلامنا كلها وقت النوم هي من نشاط العقل الباطن وهي لذلك غير واعية لا نعي بها عند اليقظة الا اذ حدث حادث أذكرنا في النهار ببعض تفاصيلها فنذكرها كما اننا نستطيع تذكرها وقت الاستيقاظ

عند ما يكون العقل الباطن متنبهاً بعض التنبه . ولكننا نذكر الكابوس للألم المنبه الذي يحدث في نفوسنا

وأحياناً يحدث أن النائم يمشي ويؤدي أعمالا اذا استيقظ نسيها كلها أو تذكرها كما يتذكر الانسان الحلم . فما تجب ملاحظته هنا أن المشي في النوم هو تمثيل للحلم أي انه تأكيد للحلم بالفعل . فأنا أحلم مثلا اني انتقلت من غرفة الى غرفة ولا أتحرك . ولكن آخر غيري يمثل هذا الحلم فيقوم وهو نائم وينتقل من غرفة الى غرفة . ومن الناس من يحلم أنه يتكلم وهو لا يتكلم بالفعل ولكن غيره يحلم أنه يتكلم ثم يتكلم بالفعل

فالمشي والحركة في النوم يمثلان الحلم الذي يحلمه صاحبهما . وهما دليل على قوة الحلم وأن العقل الباطن يسيطر على أعضاء الحركة ويحدث في النفس من العواطف ما يبعث النشاط في أعضاء الجسم مع نوم العقل الواعي

وتمثيل الحلم بالحركة والمشي اكثر في الاطفال والصبيان منه في الرجال . وهذا يتسق مع ما ذكرناه من أن العقل الباطن أقوى في الطفل والصبي منه في الرجل ولذلك فالحلم الذي يراه الرجل وهو نائم وادع يراه الطفل قوياً يدفعه الى الحركة والمشي

ولكن المشي في النوم يتسم بصفة اخرى غريبة . وهي ان النائم أحياناً يمشي على حافة مستدقة فلا يقع مع أنه لا يستطيع أن يمشي عليها وقت اليقظة . وعلة ذلك أنه يمشي بعقل واحد هو العقل الباطن فلا يتردد ولا يدخله الشك أو الخوف بأنه سيقع لأن العقل الواعي الذي يبصره بالخطر نائم . فالعقل الباطن يسيطر

على أعضاء الحركة سيطرة تامة ولا يشك فيما يفعل

وقبل ان اختم هذا الفصل أرى ان ألمح للقارىء بان الجنون النفسي يحدث اذا طغى العقل الباطن طغيانا عظيما بحيث :

١ ـ يصير الكابوس الذي يحدث في النوم يحدث في اليقظة فلا يستطيع «المجنون» ان يتكلم أو يتحرك. او تتوهم الفتاة ان رجلا قد انتهك عرضها في اليقظة

٢ ـ ينسى الشخص نفسه فيسير في الدنيا كالماشي في الحلم ويؤدي اعمالا يستغربها منه اصدقاؤه وينساها هو اذا شفي من ذهوله وذلك لأن العقل الباطن قد طغى على عقله الواعي وصار يسيطر على أعضاء الجسم

أمراض النفس

تبحث النفسلوجية الحديثة في أمراض النفس، أما أمراض الجسم التي تحدث تغييراً في العضو فلا علاقة لها بها . وان كان الذين يمارسون الاستهواء يقولون بأنه يمكن شفاء هذه الامراض الجسمية أو تخفيف آلامها بالايحاء والتلقين . وقد كان كويه ينصح لمرضاه بممارسة الاستهواء الذاتي وقد أثبت أن بعض الامراض الجسمية تشفى به . وكل من يعرف تأثير العقل في الجسم يجب أن يسلم بجزء كبير مما يقوله كويه

ولكن الواقع الآن أن النفسلوجي لا يتدخل في عدوى الحمى أو الجنون الحادث من السفلس عندما يبلغ الميكروب المادة العصبية ويتلفها أو نحو ذلك من الامراض التي هي من اختصاص الطبيب . لان ميدانه الاصلي هو أمراض النفس أي تلك التي تصيب النفس لا الجسم . وقد يتأثر الجسم بها تأثيراً كبيراً حتى يحدث الهزال وقد تبدو علامات جسمية كالقيء أو نحو ذلك ولكن العلة الاصلية في النفس لا في الجسم

ويمكن أن نضرب بعض الامثلة لهذه الامراض :

فهناك مثلا شخص اذا ركب القطار واستدبر القاطرة قاء وهناك شخص آخر اذا أكل الجنبري قاء وأسهل . والقيء يرجع في الحالتين

الى النفس لا الى الجسم . فقد ساءت تربية الاول عند ركوبه القطار لاول مرة وأوهم بانه سيقيء كلما استدبر القاطرة فصار لهذا الوهم أثر في نفسه يؤثر في معدته . أما الثاني فالاغلب انه حدثت له حادثة جعلته يشمئز من الجنبري كأن رآه مرة حول جثة منتنة طافية على الماء يأكل منها . وقد ينسى كلاهما علة القيء ولكن العقل الباطن لم ينس فهو يستعيد الذكرى على غير وعي من الشخص ويؤثر في أعصاب المعدة فيحدث القيء

فهذان مثلان بسيطان لتأثير النفس في الجسم وإحداث مرض نفسي يعيش مدى العمر . وان كان هذا المرض خفيفاً لا يحتاج الى علاج

ولكن هناك امراضاً نفسية كثيراً ما تودي بحياة اصحابها او تلقيهم في شقاء عدة سنوات . ومعظم هذه الامراض يرجع الى ان الحضارة الحديثة تضطرنا الى كبت شهواتنا وعواطفنا وعندئذ تتخذ الشهوة او العاطفة جملة سبل :

١ ـ فقد تتسامى وتجد بذلك منفذاً تصرف اليه قوتها فلا تحدث منها أمراض

٢ ـ قد تنصرف الى أحلام وخواطر تخفف ضغطها

٣ ـ اذا اتضح للنفس ان العقل الواعي لا يشبع شهواتها أو عواطفها عمدت الى عقولها القديمة فاعتمدت عليها . وهذه العقول لها أساليب تبدو لنا كأنها فساد في النفوس كثيراً ما نطلق عليه اسم الجنون . وهي في هذه الحال تشبه المقاتل الذي تفسد احدى آلاته الجديدة فيعود الى آلاته القديمة

فالجنون النفسي هو ردة في استجابة الجهاز العصبي الى المؤثرات الخارجية فبدلاً من أن يستجيب لها بالطرق الحديثة التي حصلت للانسان في تطوره الاخير يستجيب بالطرق القديمة وهذه الاستجابة نسميها جنوناً او انحطاطاً أو فساداً في النفس . فالنفس ترى مثلاً أن العقل الواعي قد هُزم ولم يستطع حل عاطفة خوف او حب أو نحو ذلك فهي تلجأ عندئذ الى عقولها القديمة التي كانت لها قبل ظهور العقل الواعي فتستجيب للحادث الذي أحدث هذه العاطفة أو لذكراه باساليبها القديمة

ولننظر الآن في بعض هذه الاساليب ونتدرج في ذلك من الامراض الخفيفة الى الامراض الخطيرة

١ ـ اذا بلغ الاعياء من أعصابنا مبلغاً عظيماً صرنا « عصبيين » فاذا سمعنا ضوضاء لا تنبه الرجل الا تنبيهاً عادياً انتفضنا وذُعرنا . ومعروف أن الطفل (الذي يمثل أسلافنا) ينتفض للصوت المفاجيء

٢ ـ ومن المعروف أيضاً أن الحركة العصبية في الاطفال لا تتدرج فذراعه اذا أراد أن يتناول شيئاً بها انتفضت كأنه لا يملكها وقد لا تصيب ذلك الشيء الذي يريد أن يتناوله . ولكن أعصاب الصبي أو الرجل متدرجة تصرف من قوتها في حركة الذراع على قدر المطلوب منها . ونحن اذا ضعف جهازنا العصبي لاجهاد عظيم أو لخوف شديد زالت منا خاصة التدرج فتكون حركة الذراع عندنا شبيهة بما هي عند الطفل وتحدث لنا انتفاضات تشبه انتفاضات الطفل (والطفل يمثل الاسلاف)

٣ ـ نحن نعرف أن الغالب في أحلامنا الصمت وأنه اذا تغشانا

الكابوس أصابنا سكون في الحركة فنحاول ان نجري فلا نقدر . وقد قلنا ان الاحلام تمثل لنا أساليب العقل القديم . وعلى ذلك يحدث أحياناً أننا نرى رجلا مريضاً صامتاً ساكن الحركة . فنبحث عن علة هذا المرض فنجد أنه قد حدثت له حادثة قدرعبته رعباً شديداً نخرج منها في يقظته بما يشبه الكابوس في النوم لا يستطيع الكلام ولا الحركة

والاستجابة للخوف عند بعض الحيوانات تقوم الآن وكانت في الارجح تقوم عند الانسان الاول او الحيوان الذي تطور الى انسان سكون الحركة حتى لا يلتفت اليه الوحش المغير في الظلام فينجو الحيوان بسكونه . أما اذا تحرك وانتفض وجرى وزعق فالارجح ان الوحش المغير عليه كان يتعقبه ويقتله . فالصمت والسكون طريقة قديمة للاستجابة الى الخوف . تظهر لنا الآن في أحلامنا في الكابوس . واذا كان الرعب شديداً ظهرت لنا في يقظتنا لان العقل الباطن يطغى على العقل الواعي

٤ ـ بعض المجانين يمشي على أربع كالحيوان أو يقعد بهيئة الشمبنزي وهذه علامات واضحة في تغلب العقل القديم

٥ ـ نعرف ان العقل الباطن تكون عواطفه أحياناً من القوة بحيث نتكلم في الحلم . وقد نضرب شخصاً بيدينا . ثم تكون أحياناً أقوى من ذلك فنقوم في الليل ونمشي ونؤدي أعمالاً اخرى ولكن اذا استيقظنا في الصباح نسيناها أو تذكرناها كما نتذكر الحلم فقط . فاذا طغى العقل الباطن على العقل الواعي حدث نسيان الشخصية . فيقوم الشخص من بيته ويخرج ويؤدي أعمالا لا يدري أنه يعملها

واذا ذُكِّر بها بعد ذلك أنكرها وقد تعاوده فيصير له شخصيتان كل منهما مستقلة عن الاخرى

والحب الذي يذهب أو تحمله رجلاه وهو لا يدري الى بيت حبيبته انما يفعل ذلك بعقله الباطن . فهو ينسى غايته طول سيره الى البيت ولا يتنبه الا عند ما يرى نفسه أزاء منزل حبيبته . فبذرة الجنون الذي نسميه فقدان الشخصية موجودة في كل منا تظهر فينا عند ما يطغى العقل الباطن على العقل الواعي .

والآن يرى القارىء ان الكابوس الذي يحدث لنا في الحلم أذا كانت العاطفة التي ابتعثته قوية جداً يحدث لنا في اليقظة . وأنا نفسي أعرف رجلاً فاجأه اللصوص فرعبوه فبقي أكثر من أربع سنوات لا يستطيع الكلام ولا الحركة فكان لا يستطيع المشي وان كان يقدر على تناول الطعام

حوادث الهستيريا

النظريات باطلة أو حقة باعتبار تطبيقها على الموجودات والظواهر فاذا أمكننا تفسيرها بنظرية ما بحيث لا نجد استثناء لا يمكن تفسيره أمكننا ان نقول ان النظرية صحيحة

فنظرية التطور مثلاً صحيحة لأننا يمكننا بها ان نفسر بها اختلاف الاحياء ونرى أنها تتسق معنا كلما رأينا ظاهرة جديدة من ظواهر الحياة

وكذلك نظرية العقل الباطن صحيحة لاننا نجدها تتسق معنا في تفسير أعمال العقل في اليقظة والنوم وفي المرض والصحة . فنحن مثلاً نرى مصداق هذه النظرية في مرض الهستيريا

وقد كان المظنون قبلاً ان الهستيريا تصيب النساء فقط حتى ان اسمها مشتق من معنى الرحم . ولكن الحرب الكبرى أثبتت أن الرجال يصابون بها كثيراً . والواقع ان الرجال يصابون بها مدة الحرب والقتال أكثر من النساء . أما في مدة السلم فالاصابة في النساء أكثر

وفي الهستيريا نوعان أحدهما يصيب الرجال والنساء على السواء وهو يحدث عقب الرعب والذعر. ولذلك فهو في مدة الحرب أكثر

تفشياً بين الرجال منه بين النساء لان هؤلاء لا يتصلن بالقتال مثل الرجال. أما في مدة السلم فالاصابة بين النساء أكثر منها في الرجال لأن المرأة أكثر تعرضاً للاخطار مدة السلم من الرجل. فالرجل لا يخشى مثلها الاغتصاب الجنسي وهو أيضاً لا يفكر في أخطار الولادة. أما النوع الثاني فخاص بحياة المرأة الجنسية

ولننظر الآن في هستيريا الخوف أو الرعب وهي النوع الاول:

وعوارض هذه الهستيريا في الرجل أو المرأة أنه يصاب مثلاً بالخرس واحياناً يستطيع الكلام المتقطع همساً. أو يصاب بجمود أحد أعضائه عن الحركة فلا يمكنه مثلا أن يحرك ذراعه أو ساقه حتى يحتاج الى عكازتين يمشي بهما أو يصاب بغياب الحس في ناحية من نواحي جسمه بحيث اذا وخزته بأبرة لم يتحرك ولم يتألم

وقد سبق أن قلنا ان الحيوان أحياناً يستجيب للخوف أوالرعب بجمود الحركة والصمت. وان الاغلب ان الانسان كان في الازمنة القديمة جداً يستجيب للخوف عند غارة وحش في الظلام بهذه الطريقة حتى ينجو بذلك منه. ورأينا في الكابوس ان هذه الطريقة ما يزال عقلنا الباطن يعمل بها بعض العمل وليس كل العمل. فاننا وقت الكابوس في صراع بين طريقتين فنحن نحاول الهرب وأيضاً نشعر بأننا غير قادرين على الحركة للجمود الذي يستولي على أعضائنا

والارجح في تفسير هذه الظواهر أن الانسان كان قبلاً حيواناً انفرادياً فكان الصمت والجمود ينفعانه وينجيانه من الخطر لأن الوحش يضل عن مكانه اذا كان الوقت ظلاما. ولكن لما

اجتمع الانسان صارت له طريقة جديدة في الاستجابة للخوف بالصراخ والجري . لأن للصراخ قيمة انتخابية اجتماعية إذ هو ينبه سائر العائلة أو العشيرة حتى يفر أعضاؤها أيضاً وينجوا من الخطر

فالكابوس صراع بين طريقتين في الاستجابة للخوف . ومما هو جدير بالذكر أننا عند ما نصرخ نشرع في اليقظة كأن الصراخ مقرون بالوعي

وهذا الصراع يدلنا على ان الطريقة القديمة للاستجابة للخوف ليست تامة في نفسنا وهي لا تسيطر علينا كل السيطرة ولكنها تسيطر بعض السيطرة . فنحن لا نجمد تمام الجمود وننقطع عن الصراخ تمام الانقطاع

فما يحدث في هستيريا الخوف هو نفس ما يحدث لنا في الكابوس فقد يحدث انفجار قريب من المنازل التي تتزلزل منه وتتحطم بعض النوافذ ويشعر كل ساكن ان البيت سينهدم فوق رأسه ويدفنه تحت أنقاضه حياً .فيرعب رعباً شديداً . ولكن معظم السكان ينجون من هذا الرعب ويتغلبون عليه. ويبقى بعض أفراد من النساء والرجال يصابون بالخرس أو جمود الذراع أو الساق أو غياب الاحساس من اليد . فهذه الاصابات كلها هي استجابات قديمة لجأ اليها الجهاز العصبي عند ما وقعت هذه الصدمة التي أذهلت العقل الواعي لشدتها فقام العقل الباطن يستجيب للخطر بطريقته القديمة وهي طريقة الجمود في اللسان والاعضاء. ولكن استجابته جزئية لم تصب الجسم كله وانما أصابت الذراع أو اللسان أو نحو ذلك . وقد ذكرت في

الفصل السابق رجلا أعرفه بقي صامتاً عدة سنوات لأن اللصوص فاجئوه في منزله

وقد كثرت هذه الهستيريا في الحرب الكبرى بين الجنود . وهذا هو ما ينتظر . والغريب أن هذه الهستيريا تخدم الجندي بحمايته من الخطر والتعرض للقتال كما كانت تخدم الانسان القديم بحمايته من الوحش الطارىء . فان الجندي الذي تقع بجانبه قنبلة يُرعب رعباً شديداً ويود بالطبع لو يترك القتال ولكنه لا يمكنه أن يصرح بذلك . فيحدث عقب انفجار القنبلة أن يؤذن له بترك القتال لان ذراعه قد جمدت أو ان لسانه قد انعقد أو أنه أصيب بالعمى أو انه لا يستطيع المشي لان ساقه قد جمدت عن الحركة . فجمود الحركة يؤدي عند الجندي الآن تلك المهمة التي كان يؤديها عند الانسان القديم بتنجيته من الخطر . وقد يعارض القارىء في هذا التفسير من حيث ان الجندي الذي يصاب بجمود الحركة يتعرض للخطر أكثر لأنه لا يمكنه الدفاع عن نفسه وقت القتال . والواقع الذي اثبتته الحرب ان الهستيريا لا تصيب الجندي الا بعد أن يغادر المعركة بعدة أسابيع أو أشهر . وأحياناً يصاب الجندي بنوم قد يدوم عدة أشهر ولكن هذا النوم مصحوب بجمود الاحساس أيضاً

أما مدة السلم فالمرأة تصاب بهستيريا الخوف أكثر من الرجل للسبب الذي ذكرناه آنفاً وهو تعرضها لخطر الولادة وخوفها أحياناً وهي فتاة من انتهاك عرضها . ويجب ان نلاحظ ان الارجح ان التعارف الجنسي في الازمنة القديمة جداً كان كله انتهاك عرض ولذلك فالعقل الباطن في المرأة يتوجس من هذه الناحية توجساً

عظيماً وتحدث من ذلك هستيريا الخوف عند المراة

ولننظر الآن في الهستيريا الخاصة بحياة المرأة الجنسية وهي. النوع الثاني :

وقبل الكلام عن هذا النوع نذكر القارىء بأننا سبق ان قلنا ان الاحلام قد تكون تحقيق رغبة أو شهوة كالجائع يحلم بأنه يأكل وقد تكون صراعاً كما هو حالنا وقت الكابوس . ثم يجب ان نقول أيضاً ان كبت الغريزة الجنسية عند المرأة أو بالاحرى الفتاة أكبر وأشد من الكبت عند الشاب . فحرية الشاب في الاختلاط الجنسي اكبر جداً من حرية الفتاة ثم هو له من طرق التسامي العديدة ما يخفف عنه ضغط هذه الغريزة . أما الفتاة فان أنظمتنا الاجتماعية تحرمها من تحقيق رغبتها ومن التسامي

نستنتج من ذلك ان لبيد الرغبة الجنسية عندها أي عواطف الحب المضغوطة في عقلها الباطن أقوى مما هو عند الشاب لأنها لا تجد منصرفاً . ولذلك فان عقلها الباطن يطغى أحياناً على عقلها الواعي ويحدث لها في يقظتها تلك الحركات أو التشنجات

والآن قد يتساءل القارىء : هل هذا الفصل خاص بالنفسلوجية أو بالطب ؟ والجواب ان الهستيريا مرض يصيب النفس بحيث يبقى الجهاز العصبي سليماً ولا تمكن معالجتها بالعقاقير وانما يبث عقيدة في النفس

والعلاج يتلخص في الايحاء أي بأن يقول الانسان للمريض بأن علته وهمية وان ذراعه مثلاً سليمة . وقد يمكن تسهيل العلاج

بأن يتدرج فيه المريض فيقال له ان اصبعه سليمة ثم يده ثم ذراعه ويكرر ذلك عليه حتى يقتنع

ولكن اذا كان لا يقتنع بالايحاء البسيط فيمكن استهواؤه أي تنويمه ثم تلقينه بأنه سليم . أو يمكن المريض أن يلقن نفسه قبيل النوم كأن يقول لنفسه : في الصباح سأحرك ذراعي

واذا كان المريض متعلماً سهل العلاج لانه يمكن أن تفسر له نظرية هذا الفصل فيقف على عقله الباطن ويمنعه من الطغيان

السنون الاولى للطفل والصبي

قلما تنجع التربية في الطفل اذا اسيئت في السنوات الاولى من حياته . فقد رأينا فيما مضى من الفصول كيف اننا نحلم باشياء حدثت لنا في طفولتنا وصبانا من أحاديث أو أساطير سمعناها أو حوادث صغيرة رُعبنا منها . فنرى هذه الحوادث أو تتجسم لنا هذه الاحاديث ونحن في سن الاربعين أو الخمسين فنعرف منها ان العقل الباطن لم ينس السنين الاولى من الحياة ولكننا نعرف ان العقل الباطن يؤثر في أخلاقنا وغاياتنا ومساكننا . وعلى ذلك يجب أن نقول ان السنين الاولى للطفل تكيف أخلاقه المستقبلة وترسم له غاياته التي قد يعيش لها طول عمره

وذلك لأن الطفل يولد وعقله يكاد يكون كاللوحة يمكننا أن نكتب عليها ما نشاء . ثم هو في تلك السن حين لا يبلغ بعد الخامسة يقبل الايحاء بكل صنوفه فتراه يحاكينا في صوتنا وفي حركاتنا يضحك مما نضحك منه ويبكي لما نبكي له ويخاف ما نخافه فاذا رآنا رعبنا رُعب هو أيضاً لا لانه يفهم طبيعة الشيء المخوف بل محاكاةً فقط لنا

ولذلك نخير سبيل لتربية الطفل ألا نفعل امامه شيئاً لا نحب ان ينشأ عليه ، بل نقف منه موقف القدوة التي يحاكيها هو ويقتدي بها

وهو لا يدري . فهو اذ رآنا نأكل ونلتهم الطعام ونبدي انشراحنا لذلك فانه لا بد ناشيء على توخي اللذة من التهام الطعام ولن يتبدل خلقه بالنصائح والاوامر بعد ذلك . فقد اوحينا اليه في صغره ان التهام الطعام لذيذ فنشأ في نفسه هذا الذوق . فاذا امرناه بعد ذلك بالاعتدال والتعفف فان الامر لا يحدث في نفسه سوى الكبت الذي يجعله يتحين الفرصة لكي يلتهم خفية ما يجده . وقد سبق أن اوضحنا أن الامر يحدث في النفس مقاومة وقلنا اننا اذا منعنا أنفسنا من الضحك انفجرنا بالضحك

فتكوين الاخلاق في الطفل لا يكون بالامر وانما يكون بالقدوة والايحاء بحيث نستحدث في نفسه رغبة تندس في عقله الباطن وهو لا يدري فتحدث عاطفة تدفعه الى العمل

فاذا وجدنا الطفل مثلا يلعب في أشياء قذرة فسبيل اصلاحه ألا نأمره بالكف عنها بل نبدي له اشمئزازنا منها . فان هـذا الاشمئزاز الذي يرى هو علاماته في وجوهنا يحـدث فيه نفسه اشمئزازاً بطريق المحاكاة فيكف وحـده ويكون عقله الباطن على استواء مع عقله الواعي ليس بينهما صراع بشأن عاطفة مكبوتة يحدثها أمرنا له بالـكف

والمعروف الآن الثابت من التجارب ان الطفل قليـل الغرائز يكتسب ما فيه من أخلاق وأذواق اكتساباً بالقدوة والايحاء . فهو لا يعرف من الخوف أو بالاحرى من غريزة الخوف سوى السقوط والصوت المفاجيء أما الظلام أو الوحوش أو ما ماثل ذلك مما يحكى عن العفاريت فلا يخشاها الا بالاكتساب . فالطفل

يبدأ يخشى الظلام اذا فتح عليه باب الغرفة المظلمة فجأة فيقرن في ذهنه صورة الظلام بالصوت المفاجيء ويبقى بعد ذلك يخشى الظلام . وقد تحكى له أسطورة عن عفريت ويوحي الراوي اليه الخوف منها فيبقى يخافها مدى حياته

أعرف شاباً كان يخشى مقابلة الاغراب فاذا أجبرته الظروف على التعرف الى رجل ما احمرت وجنتاه وتخبل في حركاته وتلعثم لسانه . وهذه حالة نردها عادة الى كثرة الحياء . ولكن الواقع ان هذا الشاب كان وهو صغير كثير اللعب فكان أبوه يضربه وينهره . فكان وهو طفل يخشى أباه كثيراً واندست عاطفة الخوف الى عقله الباطن فصار يخشى كل رجل يشبه أباه . وبديهي ان الخوف يشتد عند التعرف برجل غريب وأوجه المشابهة كثيرة بين الناس فلذلك كان يخشى كل رجل . فهذا الحياء الشديد الذي كان يبدو منه لم يكن في الحقيقة سوى خوفه وهو طفل من أبيه ولذلك ماكاد يعرف هو نفسه هذه الحقيقة حتى زال عنه هـذا الخوف لانه استطاع أن يسيطر على عقله الباطن بعقله الواعي

ولما كان استعداد الطفل للايحاء قوياً فاننا يجب أن نعتمد على الايهام كثيراً فنوهم الطفل بأنه ذكي وانه نظيف وانه قادر حتى ينشأ وهو يحسب في نفسه هذه الصفات ويتجنب كل ما يوهم في نفسه العجز أو البلادة . أما اذا سبق الى ذهنه أنه بليد فان هذا الوهم يقضي عليه قضاءً تاماً في حياته . وقد يدفعه ايهامه بالذكاء والقدرة الى الغرور ولكن الغرور يحتاج على الدوام الى الاجتهاد للصعود الى مستواه وهو خير على كل حال من توهم العجز

فاذا صار الطفل صبياً ورأى منه والده بلادة في بعض دروسه فان أحسن ما يعالج به أن تقرن الى درسه عاطفة تحركه الى العمل . فكثير من الصبيان يكرهون الحساب . ولكن الحساب يكون لذيذاً جداً اذا كان خاصاً بنقود يملكونها ويتصرفون بها لان عاطفة الامتلاك تنبههم وتوقظ ذهنهم . وقد يجد التلميذ مشقة في تعلم اللغة الانجليزية ولكن لو قيل له أنه سيزور انجلترا بعد أشهر لأقبل عليها بكل قواه وقد أمكن علاج طفل كان يكره اللغة اللاتينية ولا يطيق تعلمها بان بُثت في نفسه الرغبة في أن يكون طبيباً ثم افهم بعد ذلك بأنه لا يمكن تعلم الطب بدون اللاتينية . فأقبل على هذه اللغة الميتة بعزم جديد

ومعظم البلادة التي ترى في الصبيان لا ترجع الى نقص ذكائهم بل الى عدم اهتمامهم بالموضوع الذي يدرسونه . ومعنى عدم الاهتمام هذا أنه لم تقم في أنفسهم عاطفة بشأنه . وقد توجد المباراة بين الصبيان هذه العاطفة أحياناً

وللبيئة الحسنة أثر كبير في تكوين الذوق . فالطفل الذي ينشأ في بيت نظيف في حي جميل سيدأب طول حياته في أن يحتفظ بمركزه ويعيش في مثل هذه البيئة ولا يطيق النزول عنها . والطفل الذي اعتاد مستوى معيناً من النظافة لا يمكنه أن ينحط عنه فيما بعد

والآراء والمعتقدات كلها تكتسب بالايحاء . ولذلك فان الابناء ينشئون ويتعصبون لديانة آبائهم

وكما يجب أن يكون الوسط المادي والمعنوي نظيفاً راقياً في البيت يجب أن يكون كذلك أيضاً في المدرسة . ثم يجب أن نبث في الصبي

روح البحث لا روح الاستذكار والاستظهار لانه كما تبدأ دراسته سيبقى مدى حياته متعلقاً بالاساليب الاولى يعتقد أن الاستظهار هو كل ما يطلب منه في هذه الدنيا . فطالب الجامعة لا ينجح ما لم يكن وهو تلميذ في المدرسة قد بثت فيه روح البحث

ومما يساعد على النشأة الحسنة للطفل أن يرى أبويه كما هما في الحقيقة . واذا بلغ سن المراهقة أو شعر بالدوافع الجنسية التي تسبقها يجب أن يصارح بشأنها ويوقف على حقيقتها وما فيها من أخطار ومسرات ويوضع نصب عينيه أمنية الرجولة السليمة

ومعظم التعرضات والعقائد الفاسدة في تناول الطعام والشراب وفي معاملة الناس تنشأ في الصغر فقد يكفي أن تشمئز الام أمام طفلها وهي تتناول الجبن او اللحم فيشمئز هو أيضاً عند رؤيتهما وينشأ على كراهتها ويحتاج الى جهد كبير لكي يمحو من عقله الباطن عقيدة الاشمئزاز منها

وسنرى بعض الامثلة عن هذا الموضوع في الفصل التالي

التعرضات

أراؤنا ومعتقداتنا تنشأ في أنفسنا عن سبيل العقل الباطن وقد نتعصب لها تعصباً يراه غيرنا حمقاً وقد نراه نحن كذلك أيضاً اذا حللناه بعقلنا الواعي . ولكننا نجد للعقيدة التي نتعصب لها سلطاناً في نفسنا واشتباكاً بطائفة من عواطفنا تمنعنا من الاقرار بأننا مخطئون.

ومعظم ما نتعصب له تعرضات نشأنا عليها وتكررت علينا حتى صار لها قوة الايحاء للعقل الباطن . وقد بينا في فصول سابقة قيمة التكرار في ايجاد عقيدة للنفس . وهذا التكرار نفسه يحدث لنا بجملة صور لا ننتبه لها . وقد تحدث العقيدة في النفس بحادثة حدثت لنا في الصبا فغرست تعرضاً في العقل الباطن لا يمكن نزعه بالعقل الواعي

أعرف شخصاً يكره التدخين ويبلغ من تعرضه أنه لو اضطر الى تناول سجارة بيده عمد من فوره الى الماء ليغسلها. فلو انه كان ينظر بعقله الواعي الى السجارة لعلم أنها قطعة من الورق النظيف لا تحتوي الا على كمية من ورق جاف لأحد النباتات . ومحال أن يشمئز الانسان من ورق الشجر الجاف . ولكنه هو لا ينظر بعين المنطق الى هذا التعرض فان في نفسه عقيدة تجعله يشمئز من السجارة ولما كنت أعرف هذا الشخص والبيئة التي نشأ فيها استطعت أن أقف

على أصل هذه العقيدة . وهو أنه قد حدث له وهو صغير أنه كان يخدم في منزل والديه خادم سمين ضخم . ولم تكن علاقته بهذا الخادم مرضية له لان هذا الخادم كان أحياناً يحمله مرغماً الى المكتب وكان للخادم طريقة قذرة في جمع أعقاب السجائر التي تتخلف من الضيوف ثم يدخنها فتكون منها رائحة شنيعة تؤذي هذا الصبي . فلما شب رسخت في عقله الباطن عقيدة الكراهة للتدخين والسجائر

وأحياناً نرى أحد الاشخاص فنستسمج منظره ومسلكه و ننظر اليه بعين الزراية والاحتقار والتعرض . والارجح أن علة ذلك ترجع الى أننا قد عرفنا شخصاً يشبهه ونحن صغار حدثت بيننا وبينه حادثة آلمتنا كأن يكون قد أخافنا او انتزع منا شيئاً أو نحو ذلك . فصورته قد انطبعت في العقل الباطن بحيث اذا رأينا شبيهاً له تحركت في نفسنا الكراهية له . وأحياناً نرى شخصاً نستخف ظله لعكس هذا السبب

والى مثل هذا التعرض يرجع شعورنا نحو اليهود . فقد يسمع الصبي قصة من أم جاهلة عن اليهود الذين يأكلون الصبيان فتؤثر هذه القصة في عقله الباطن تأثيراً كبيراً . فاذا كبر نسي بالطبع هذه القصة أو تناساها لسخافتها . ولكن العقيدة قد اندست في عقله الباطن فهو كلما رأى يهودياً أو ذكره شعر له بالكراهية . ثم يعمد عقله الواعي الى أن يمسح مسحة من المنطق على هذه الكراهية فيتهم اليهود بانهم يشتغلون بالربا المكروه او أنهم يكرهون الاديان الاخرى أو نحو ذلك مما يقصد منه التبرير . ولكن السبب الحقيقي للكراهية هو هذه القصة السخيفة التي أحدثت عقيدة راسخة في العقل الباطن تشبه العقيدة عند كثيرين منا بأن في الظلام عفاريت

ومن الناس من يكره القطط فلا يطيق أن يكون مع قط في بيت . وترجع هـذه الكراهية الى حادثة حدثت في الصغر حين أرادت الأم تخويف ابنها بالقط أو حين ذكرت أن العفريت يظهر أحياناً في هيئة قط أسود . والحادثة أو الخبر ينساه الطفل اذا شب ولكن العاطفة راسخة في العقل الباطن

وقس على ذلك سائر تعرضاتنا . ففينا شبان يكرهون اللغة العربية لانهم كانوا يكرهون وهم تلاميذ صغار ذلك الشيخ الذي كان يدرس هذه اللغة . وقد تجد طبيباً يهودياً يعرف أن لحم الخنزير من اللحوم المغذية ولكنه مع ذلك لا يقربه للعقيدة الراسخة في ذهنه منـذ الطفولة بأنه حيوان نجس واذا هو أكل شيئاً من لحمـه تكلف ذلك كمن يقاوم عاطفة كامنة في نفسه

وهناك فرق بين العقائد والمعارف . فالمعرفة تخضع للعقل الواعي وتتغير أو تتطور وفقاً لما يراه من تعديل وتصحيح . ثم هي لا تحدث في أنفسنا عاطفة من الحب أو الكراهيـة . فنحن « نعرف » أن الارض اكبر من القمر . ولكن لو قام فلكي وأثبت عكس ذلك لما شعرنا بالحزن أو الاسف أو الغضب وكل ما نطلبه أن نفهم كيفية تحقيق هذا القول . فاذا أثبت لنا التحقيق صحة هـذا القول سكنا اليه . ولكن ربما يكون من المبالغة قولنا ان المعرفة لا تحدث عاطفة . فقد سبق أن قلنا ان التفكير هو :

معرفة ثم عاطفة ثم رغبة ثم ارادة

ولكن يبدو لنـا أن المعارف العلمية يكاد لا يكون فيها عاطفة كأن التفكير يقف في طوره الاول وهو المعرفة . ولكن الواقع أن

هناك عاطفة ضعيفة هي في المثل السابق عاطفة الرغبة في الوقوف على الحقيقة ولكنها من الضعف بحيث لا تحدث لنا حزناً أو غضباً محسوساً وان كنا أحياناً نقف أو نمشي عندما يحط ذهننا مدة التفكير على فكرة جليلة

أما العقيدة فتخضع للعقل الباطن وهي قوية العاطفة . ولذلك فاننا قد نرى الخطأ واضحاً فيها بعقلنا الواعي ولا نستطيع مع ذلك النزول عنها كهذا الذي يكره أن يلمس السجارة بيده ويشمئز من ذلك حتى يحتاج الى الاغتسال . فمعرفته تناقض عقيدته ولكن الثانية تتغلب على الاولى وتكيف أخلاقه وتطبع ذوقه . ولهذا السبب يكره المؤمن أياً كان دينه أن يناقشه أحد في عقيدته مع ان العالم في الجغرافية أو الرياضة يحب المناقشة ولا يخشاها . وذلك لان للاول عقيدة وللثاني معرفة

والآن يجب أن نلمع جملة الماعات في ضوء هذه الحقائق :

وأول ذلك أن الرجل الذكي تتغلب معرفته على عقائده فهو لذلك قليل التعصب قلما يتحمس لرأي وهو أيضاً سريع التطور يسير مع الزمن . وللأمم المتمدينة في الآداب والشرائع معارف وللامم المتأخرة عقائد . ولذلك فالاولى يمكنها تغيير شرائعها أو آدابها أما الثانية فيشق عليها ذلك

واذا كان المستقبل للعقل الواعي الذي سيزداد قوة واحاطة وسيطرة على حياتنا فان المعارف ستفوز على العقائد . ولكن لما كانت المعارف ضعيفة العواطف بجانب العقائد فان انسان المستقبل سيكون بلا شك ضعيف العواطف جداً لا يغضب ولا يحزن ولا يخاف

ولـكن يجب هنا ان نقول ان التفكير العلمي في حالة الانسان الراهنة من أشق الاعمال المضنية له . وذلك لسببين :

أولاً : ان عقل الانسان لم ينشأ الا بغية البحث عن الطعام والشراب والمرأة والمسكن وانه لهـذا السبب عند ما نقف على « المعرفة » نراها تتطور الى عاطفة ثم رغبة ثم ارادة تحرك الجسم نحو الغرض المطلوب تحقيقه ولـكن لما كان التفكير العلمي مقصوراً على المعرفة مع اهمال سائر الاطوار التالية ، فانه لذلك عمل غير صحي للجسم يضنيه ويتعبه لانه بمثابة من يرى الطعام ويمتنع عن الاكل

وثانياً : لما كان العقل الواعي هو اداة التفكير العلمي وهو مع ذلك أحدث عقولنا فهو أقلها قدرة على الجهد وأسرعها شعوراً بالتعب

المركبات

المركب في النفسلوجية الحديثة هو جملة عواطف مندسة في العقل الباطن قد غابت عن الوعي ولكنها مع ذلك تؤثر في الاخلاق والميول وقد تحدث أحياناً جنوناً أو تسامياً

والمركبات أصناف عديدة . منها : مركب النقص . ومركب أوديب . ومركب الكرامة . وهذه مركبات عامة قلما تختلف في نتائجها

ولكن هناك مركبات خاصة ببعض الاشخاص كذلك الذي كان لا يطيق رؤية الخنادق ويغمى عليه عند ما يدخلها ولا يدري سبب ذلك . ولكن بالتحليل اتضح أنه وهو صغير دخل في ردهة مظلمة مستطيلة فنبحه كلب وذعره . فنشأ في عقله الباطن مركب خاص بالخوف من كل مكان مظلم ضيق

وأهم المركبات هو مركب النقص . فقد يشعر الصبي بنقص ما في كفاياته الجسمية او الاخلاقية او حتى العائلية فيرى انه دون اخوانه لهذا النقص . فيعمد الى التبريز عليهم على سبيل الاعتياض من هذا النقص ويفعل ذلك وهو لا يدري ما يفعل لان الاحساس بالنقص لا يعي هو به ولكنه مندس في عقله الباطن . ويقول أدلر : انه قد استقرى مئات من العبقريين فألفاهم كلهم قد نشئوا على

نقص ما . فمثلا بيرون الشاعر الانجليزي أعرج وكان مع عرجه مغرماً طول حياته بوصف جماله . وكان جيته يشكو من عينيه فعاش طول حياته وهو يقرأ ويكتب . وكان نيتشه مريضاً يصرخ من آلام الرأس فوضع عدة كتب في تأليه القوة وانها الغاية التي ليس وراءها غاية

ولننظر نحن في حالة قريبة منا هي حالة الاديب الكبير الدكتور طه حسين . فقد أصيب بالعمى وهو صغير وأصبح الآن من كبار زعماء الادب في مصر . فما هو تحليل مركب النقص فيه

لما أصيب بهذه العاهة رأى عجزه عن سائر الصبيان من اخوة وأقارب واحتقارهم له أو احتيالهم لمعاكسته ومناوأته . واندست العقيدة بعجزه في عقله الباطن فجعلت نفسه تتشوف الطرق التي يمكنها بها أن تتميز . ولم يكن ذلك شاقاً فان أباه أمكنه من التعلم فوجد في الاكباب على العلم وسيلة يتميز بها . وجهد مجهوده فبرز وسبق . ولكن يجب ألا نعتقد أنه يشعر بمركب العجز لان هذا المركب غير واع اذ هو نابع من العقل الباطن . لكن عدم الوعي به لا ينفي أنه قوة كبيرة تدفع الى الجهد والتبريز

ولكن مركب النقص لا ينتهي على الدوام بالتفوق . والا كان يجب أن يتفوق الزنجي الذي يرى نفسه محتقر اللون على الاوربي الابيض . فان هذا المركب اذا لم يجد فرصة للتفوق يثقل صاحبه ويؤخره . وهناك من يعتقد ان كثرة الوفيات بين الزنوج والامرنديين في اميركا ترجع الى مركب النقص الذي يندس في نفوسهم وهم صغار عند ما ينشئون في محيط غربي

وسنرى في فصل قادم أن هناك شروطاً اخرى للعبقرية غير مركب النقص

ومن المركبات المهمة مركب آخر يدعى مركب أوديب . وقد تسمي بهـذا الاسم عن اوديب الملك في المأساة الاغريقية القديمة فان أوديب هذا يتزوج امه

وقد أثبتت الابحاث الحديثة ان الطفل ينشأ على عداوة مستكنة بينه وبين أبيه بشأن امه . فهو يحبها ويغار من أبيه اذا رآه يتودد اليها . وبعض الآباء يلذ له رؤية هذه الغيرة فيبدي حبه لزوجته أمام الطفل . ويظن الوالد ان هذا لهو بريء . ولـكن الواقع ان الطفل ينشأ على كراهته كراهة عمياء لا يعرف علتها عنـد ما يشب ويصير رجلا لأن هذه الـكراهة نشأت من الغيرة واندست في عقله الباطن وتولد منها « مركب أوديب »

وأحياناً يرى الصبي أو الشاب في الحلم أباه ميتاً . وقد يصعب تفسير ذلك لأول وهلة لأن الموت هنا لا يمكنه أن يدل على رغبة الشاب . ولـكن اذا تذكرنا مركب أوديب عرفنا ان الموت هنا يعبر عن رغبة صبيانية قامت في نفس الصبي عند ما سممته الغيرة . والاحلام كما قلنا تعبر عن رغبات الطفولة أحياناً

ولهذا المركب أثره في حياة الشاب . فانه يجعله يختار من الفتيات عند ما يريد الزواج فتاة تشبه أمه . وهذا ما يقع لـكل شاب تقريباً

ولـكن لهذا المركب أضراراً إذ قد يجعل الشاب لشدة تعلقه بامه يخشى الخروج الى الدنيا ولا يطيق فكرة الزواج لأن عقله الباطن يوهمه ان الزواج خيانة لامه لانه يجب أن يقنع بها . وأحياناً

يجعله لكراهته لابيه يكره الرجولة كلها فيستأنث في أخلاقه وميوله ويغضب لامارات المراهقة التي يراها في نفسه

أما مركب الكرامة فانه يصيب الرجل اذا أفلس أو اذا نزلت به نكبة كبيرة تجعله مهاناً فانه يقوم بنفسه أنه ملك أو يدعي أنه يملك أحد المصانع كما شرح ذلك ولز في قصته « سر جون: ملك الملوك » التي عاد فسماها « والدكرستينا البرتا » فان هذا الرجل يشعر بخيانة زوجته وان عيشته معها غير طاهرة وأنه مهان فيعمد عقله الباطن الى ما يقابل ذلك من ناحية السمو والكرامة فيتخيل نفسه ملكا . وجنونه هنا هو جنون التسامي والرغبة في الرقي

ولكل منا عدة مركبات تؤثر في أخلاقه وقد ترجع بعض التعرضات الى مركبات ضعيفة

كيف تتكون الآراء والعقائد

جوستاف لوبون كاتب فرنسي قد درس النفسلوجية الحديثة وعرف قيمة العقل الباطن في الآراء والعقائد السياسية والدينية ودرس الوسائل التي تتكون بها . وسننقل فيما يلي بضع فقرات منه في هذا الموضوع كما نقلها الاستاذ زعيتر في كتاب « الآراء والمعتقدات » مع تنقيح بسيط حتى يجري الكلام وفق التعابير المتبعة في هذا الكتاب

ويمكن القارىء ان يتذكر حوادث سنة ١٩١٩ في مصر وأيضاً نفوذ سعد باشا زغلول في الحركة الوطنية فيرى فيها كلها مصداق أقوال جوستاف لوبون . فهو يقول ان الآراء تنتشر بالتوكيد والتكرار والمثال والنفوذ والعدوى

فاذا تأمل القارىء هذا الكلام وجد ان المعنى ينحصر في أن الايحاء يحدث العقيدة أو الرأي أو التغرض . وان طرق هذا الايحاء عديدة تحدث أحياناً بالتوكيد والتكرار أي بالتلقين وبالمثال أي بالقدوة وبالنفوذ (كذلك النفوذ الذي كان لسعد باشا زغلول من اسمه وتاريخه وجهاده) وأخيراً بالعدوى يعني المحاكاة

فالآراء والعقائد تنتشر في الامة ولا سلطان للعقل الواعي عليها

لأن هـذا العقل يطلب التجربة والبرهان وقليل من الناس من يعتمد عليها

يقول جوستاف لوبون :

ان التوكيد والتكرار عاملان قويان في تكوين الآراء وانتشارها واليهما تستند التربية في كثير من المسائل . وبهما يستعين رجال السياسة والزعماء كل يوم في خطبهم ولا يحتاج التوكيد الى دليل عقلي يدعمه . وانما يقتضي أن يكون وجيزاً حماسياً ذا وقع في النفس

والتوكيد لا يلبث بعد أن يكرر تكراراً كافياً أن يحدث رأياً ثم معتقداً . والتكرار هو تتمة التوكيد الضرورية . ومن كرر لفظاً أو فكراً او صيغة تكريراً متتابعاً فقد حول هذا اللفظ او الفكر اوالصيغة الى معتقد . واذا نظرنا الى سلسلة الرجال التي تبتدىء بمؤسس الديانة وتنتهي بالتاجر رأينا أنها تستعين على اقناع الناس بمبدأ التكرار

والتكرار من القوة بحيث يجعل الرجل يؤمن هو نفسه بالكلمات التي يكررها ويسلم بالافكار التي يعرب عنها عادة . والتاريخ السياسي حافل بالعقائد التي نشأت عن التكرار على الوجه المذكور . فقد كان قادتنا وأولو الامر منا قبل سنة ١٨٧٠ يقولون مكررين ان الجيوش الالمانية هي دون جيوشنا قوة . وبفعل هـذا التكرار اعتقدوا صحة ذلك اعتقاداً جازماً . وكل منا يعلم ماذا كانت عاقبة هذا الاعتقاد . ولا يلبث الرجل السياسي بعد اقباله على آراء مفيدة له أن يعتنقها بتأثير نضاله عنها حتى يصبح غير قادر على تبديلها عند ما تقتضي منفعته هذا التبديل

والقدوة هي أحد وجوه التلقين الفعالة . ولـكن يجب أن تكون

ذا وقع في النفوس لكي تؤثر أثرها . ففي عالم التربية نرى أن المثال البارز خير من مئات الامثلة الضعيفة التي لا تنفذ الى القلوب

وللنفوذ أثر كبير في انتشار الآراء . ففي المدارس يتعلم الطلبة أن التجربة والاختبار قد حل كل منهما الآن محل النفوذ . ولكن من السهل اثبات خطأ هذا الزعم . فلو نظرنا الى الآراء العلمية ـ دون أن نلتفت الى الآراء الدينية والسياسية والأخلاقية حيث لا شأن للدليل فيها ـ لرأينا أنها في الغالب لا تملك سوى نفوذ قائلها وانها تنتشر بالعدوى . ولا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك اذ لما كان اكثر التجارب والاختبارات العلمية من التعقيد بحيث يصعب تكرارها فانه يسلم بكلام العالم الذي يشرحها . ولذلك يحق لنا أن نقول ان نفوذ الاستاذ في الوقت الحاضر هو كما كان في زمن أرسطوطاليس بل يزداد هذا النفوذ كلما أصبح الاختصاص العلمي أعظم منه في الماضي

ويتوقف مصير اقطاب السياسة وأرباب الأعمال والأدباء والكتاب والعلماء على ما فيهم من نفوذ خاص وقدرة على تلقين الناس على غير وعي منهم . وقد ينجح الابله أحياناً في نشر رأيه لانه لما كان غير شاعر ببلاهته فانه لا يتردد في توكيد رأيه ويصبح بذلك ذا نفوذ

وقد كان شأن النفوذ في شوكة الملوك عظيماً الى الغاية . حتى ان بسكال قال . « يجب على المرء أن يكون ذا عقل نقي خالص لكي ينظر الى ملكه وهو في قصره الذي يحرسه ٤٠٠٠٠ جندي كما ينظر الى بقية الناس » وفي الجيل الحاضر الذي هو جيل المساواة

نرى نفوذ الملوك ما يزال محافظاً على شأنه . فيجمل بالملوك أن يحافظوا عليه بحكمة . وقد كتب المسيو نوزيار مراسل احدى الصحف المهمة يقول : « ان جميع من حضروا جنازة ملك انجلترا قد عجبوا من تأثير امبراطور المانيا في الجمع حينما كان يمشي في وسط الملوك . حقاً ان غليوم يكتسب باعتقاده انه ظل الله في الارض عظمة غريبة تدهش الناس »

والجماعات نظراً لاحتياجها الى العبادة لا تلبث أن تعبد اشخاصاً يؤثرون فيها بنفوذهم

ويمكننا أن نلخص تأثير الاسباب في انتشار الآراء والمعتقدات في هذه الكلمات الآتية : لا رأي أو لا عقيدة تظهر بلا نفوذ أو تسيطر بلا توكيد أو تعيش بلا مثال أو تكرار

والعدوى النفسية هي أمر روحي ينشأ عنه التسليم ببعض الآراء والمعتقدات تسليما غير ارادي ومصدرها العقل الباطن . ولذلك لا يؤثر فيها البرهان أو التأمل وهي تشاهد في الحيوان كما تشاهد في البشر ولا سيما وقت الاحتشاد

حقاً أن العدوى النفسية هي العنصر الاساسي في انتشاء الآراء والمعتقدات . وقد تبلغ بقوتها مبلغاً يجعل الانسان يضحي بأكثر منافعه الشخصية وضوحاً

ولا تسري العدوى بتماس الافراد تماساً مباشراً . بل قد تنتشر بالكتب والجرائد والحوادث حتى بالاشاعات البسيطة . وكلما زادت وسائل النشر والاذاعة تداخلت العزائم وأثر بعضها في بعض وعلى هذا الوجه نرتبط كل يوم بمن يحيطون بنا أكثر من قبل

والخوف أشد العواطف سرياناً بالعدوى وليس شأنه الكبير في حياة الافراد والشعوب بالامر المجهول

والعدوى النفسية أمر عام يشاهد في الحيوان كما في الانسان. ولذلك لا تلبث الرعشة التي تستحوز على الجواد في الاصطبل أن تسري الى الجياد الاخرى ولا تلبث الكلاب أن تنبح بعد أن ينبح أحدها وعند ما يهرب خروف تتبعه سائر الخراف

وقد تشتد قوة العدوى النفسية فتتغلب على غريزة البقاء وتدفع الانسان الى التضحية بنفسه. وهاك ما يقوله الدكتور ناص: « وقلما تنشر الصحف خبر انتحار وتفصل طريقة حدوثه ينتحر بعض مختلي الشعور حسب تلك الطريقة الموصوفة ومن هذا النوع ما وقع في اليوم التالي لحادثة سيفتون حيث خنق كثير من المختلين أنفسهم بالغاز. وتعد روسيا أكثر البلاد انتحاراً فقد كان الرسل في روسيا أيام الاضطهادات الدينية يأمرون أشياعهم باحراق أنفسهم. وقد حدث أن ألقى ٦٠٠ شخص أنفسهم في النار دفعة واحدة. ويقول أحد المؤرخين ان عدد الذين أحرقوا أنفسهم في روسيا منذ سنة ١٦٧٥ حتى سنة ١٦٩١ يبلغ ٢٠٠٠٠ نفس ومما ذكره المسيو مستوكين ان ٢٥٠٠ روسي طرحوا أنفسهم في موقد واحد طامعين في الآخرة »

وقد ينشأ عن العدوى النفسية وهم خيالي لا يلبث ان يتحول إلى حقيقة. فقد جاء في تقرير حديث للدكتور بيكيه أحد علماء الجراحة انه على أثر موت ضابط بالزائدة الدودية لزم الفراش ١٥ ضابطاً من بين ضباط احدى الكتائب البالغ عددهم ٢٥ لظهور

علامات المرض المذكور فيهم . وما عوفي هؤلاء الا بالايحاء فقط

ومعنى ذلك ان الطبيب أوحى اليهم بالتلقين بما فيه من نفوذ شخصه مع تكرار القول وتوكيده أنهم أبرياء من المرض فزالت العقيدة التي أحدثوها هم لانفسهم بالمحاكاة على غير وعي منهم

ونحن نستدل على شان العدوى النفسية في انتشار الآراء والمعتقدات من الملاحظات السابقة . فالمعتقدات سياسية كانت أم دينية تسري بين الجماعات بالعدوى (بالمحاكاة) على الخصوص . وعلى نسبة أفراد الجماعة يكون تأثير العدوى شديداً . ولا تلبث العقيدة الضعيفة أن تصبح قوية بعد أن يكتسب الافراد الذين يتنقونها صفة الجماعة

والمعتقد بعد أن ينتشر بالعدوى لا يلتفت إلى قيمته العقلية . إذ لما كانت العدوى تؤثر في العقل الباطن فانه لا شأن للعقل الواعي فيها

وبالعدوى النفسية يماثي أرباب المال والقلم والعلم آراء الجماعات. ومن أجل ذلك نرى ان العدوى قادرة على استعباد الذكاء . وقد نشأت حوادث الدين التاريخية عن العدوى النفسية . ومع ذلك لم يكن تأثيرها في أحد الازمنة الماضية كما هو في الوقت الحاضر . وسببه أولا : ان السلطة أخذت تنتقل بالتدريج إلى الجماعات بفعل المبادىء الديمقراطية . وثانياً ان تعميم وسائل النشر يؤدي إلى سرعة ذيوع الحركات الشعبية . وما من أحد يجهل كيفية انتشار اعتصابات موظفي البريد والثورات التي اشتعلت في روسيا وتركيا وبرتغال

والآراء التي انتشرت بتأثير العدوى لا تزول إلا بآراء مخالفة تنتشر بالعدوى أيضاً

تكون الاخلاق والاذواق

لا بد ان قارىء الفصول السالفة ينتهي الآن الى ان العقل الباطن هو العامل المهم في الاخلاق والاذواق . وذلك لان العقل الواعي هو عقل المعرفة والبرهان والتجربة أما العقل الباطن فهو عقل العقيدة . وقد سبق ان قلنا ان المعرفة لا تحدث الا أضعف العواطف بل هي تكاد تكون معدومة العواطف اذا قسناها الى العقيدة التي تبعث أحياناً أقوى العواطف في النفس

والعواطف هي المحرك للاخلاق والباعث للنشاط . ويكفي أن يلقي الانسان نظرة على القبائل العربية التي عاشت دهوراً طويلة في جزيرة العرب لم يسمع بها أحد ثم فارت فورة هائلة في العالم بقوة العاطفة التي أوجدتها العقيدة الدينية

وكذلك الذوق ينشأ ويتكون في العقل الباطن . فنحن نحاكي من حولنا في العادات ونقتدي بأقرب قدوة الينا نرى مثالها يتكرر كل يوم ونؤمن بالدين الذي نلقنه في صغرنا ونلبس لباس العصر الذي نعيش فيه ونأكل أطعمته على الطريقة التي نراها في غيرنا ونحن صغار . فكل هذه شئون ليس للعقل الواعي أثر فيها وانما هي من العقل الباطل

وللمركبات تأثير كبير في الاخلاق وقد ذكرنا بعضها في فصل سابق . ومركب النقص متعدد الانواع . فقد يكون أصل الوقاحة في أحد الناس أن يشعر بنقص ما في رجولته فيعيض نفسه من هذا النقص وقاحة في الكلام أو المسلك مع الناس وخاصة مع النساء وذلك لكي يحدث التوازن المطلوب في نفسه . وأحياناً نرى الفتاة التي تقدمت في السن ولم تتزوج تبالغ في الحياء والاحتشام وهذا لانها تشعر ان كرامتها الجنسية مهانة فهي تعمد الى هذه الدعوى الكبيرة بانها لا تفكر البتة في المسائل الجنسية وانها تستنكر كل ما يوهم التعارف الجنسي

وينسب أناطول فرانس اندفاع نابليون الى الحروب والفتوحات الى ما كان يشعر به من نقص رجولته . قال : « كان هذا الرجل غير رجل أو قليل الرجولة وما على المستطاع الا أن يقرأ الورقة التي كتبها الجراحون الانجليز عند الكشف على الجثة . فقد تولتهم الدهشة من المنظر الانثوي لجسد نابليون . وما كان طول حياته يصبأ بالنساء وانما كان يعشق امرأة واحدة فقط هي : الحرب والمجد . فهو كسائر المستبدين سلب الدنيا راحتها لما وجده من النقص في نفسه. أتعرف لماذا وضع جان جاك كتابه « العقد الاجتماعي » ؟ لانه كان ساخطاً على الدنيا يريد أن يشعل النار في أطراف الارض . وتجد في الشرق ان الخصيان هم الذين أحدثوا كل الثورات . . . »

ومركب النقص هذا في نابليون وجان جاك روسو جعل كلا منهما نابغة بل عبقرياً

والسنون الاولى للطفل تغرس في عقله الباطن مركبات وتعرضات

لا يمكنه التخلص منها طول حياته فتطبع ذوقه وتصوغ أخلاقه . فالطفل الذي يخشى أباه يخاف جميع الناس عند ما يشب ويبدو هذا الخوف في هيئة حياء كلما رأى رجلاً غريباً

وقد تحدث حوادث في الطفولة تجعل الطفل عندما يشب يكره أشياء لا يكرهها عامة الناس ، كذلك الشاب الذي قلنا انه نشأ على كراهة التبغ لان خادمه الذي كان يكرهه يدخن أعقاب السجائر المتخلفة من الضيوف . او ذلك الرجل الذي يكره القطط لان قطاً قد أغار عليه وهو طفل وأفزعه وخطف منه قطعة لحم . ويحدث أحياناً أن تؤدي النزهة القصيرة في الريف مع ما يلازمها من سرور سبباً في ان ينشأ الطفل وهو يحب الريف وقد يؤثل أمواله في ضيعة بدلاً من أن يؤثلها في عقار في احدى المدن

وكذلك تنشأ الفتاة على استحسان من كان في صورة والدها كما ينشأ الفتى على استحسان من كان في صورة امه . وذلك لان الشاب وهو طفل حتى وهو يرضع ثدي امه ينظر اليها نظرة جنسية ضعيفة ويغار من ابيه عليها فتنطبع صورتها في ذهنه الي ان يشب فيطلب المرأة التي تحقق هذه الصورة او تقرب منها . وكذلك الفتاة فانها وهي طفلة تغار من أمها على أبيها وتنشأ على استحسان صورته

والاخلاق والاذواق تحدث من العقائد وهذه العقائد تتسرب الى العقل الباطن أيام الطفولة الاولى وبعيدها من البيت والمدينة . ولذلك فان مكان التربية الحقيقي هو البيت لا المدرسة . فشأن المدرسة أن تعلم أي تغرس في العقل الواعي مجموعة من المعارف لا العقائد ولذلك فالتعليم لا يمكنه أن يغير أخلاق المتعلمين لان المعرفة

١٠

لا تحدث في النفس عواطف دافعة الى الاتجاه في مسلك خاص.
وقد يكون أثر الصحيفة التي تظهر كل يوم اكبر جداً في صوغ الاخلاق والاذواق من المدرسة . لان في الصحيفة مبدأ التكرار الذي يغرس العقيدة في النفس ويحيل هذه العقيدة الى عاطفة تعمل وتحرك الارادة

ولذلك فمن العبث أن تعلم الاخلاق بالكتب . فيقال للصبي مثلا : يجب أن تكون صادقاً حتى يحترمك الناس . أو يجب ألا تتزوج اكثر من امرأة

فان الاخلاق الفاضلة عادات يتعودها الانسان من البيئة التي يعيش فيها . وهي ليست معارف تحتاج الى البرهان وانما هي ايحاء يوحى الى العقل الباطن عن جملة وسائل . وقد أدرك مصطفى كمال ذلك حين أجبر الاتراك على اتخاذ القبعة ونبذ الطربوش لان المحاكاة من الشروط المهمة في الايحاء . فاذا حاكى التركي الاوربي في لباسه حاكاه أيضاً في أخلاقه فينبذ عن نفسه التواكل الشرقي ويعمد الى سائر العادات الاوربية فيصطنعها فتنتشر حضارة أوربا في البلاد ولا تجد أدنى مقاومة . وقيمة اللباس في الايحاء واضحة عندما نتأمل الفرق في الاخلاق بين أخوين أحدهما شيخ والآخر افندي أو حين ننظر الى السوري المتفرنج الذي يلبس القبعة والسوري الذي ما يزال يلبس العمامة . فكلاهما من سلالة واحدة ولهما سحنة واحدة ولكن شتان ما بينهما في الاخلاق

واذا تأملنا سلوك الناس وحللناه وقفنا على البواعث التي تبعثهم على غير وعي منهم الى التفوه بألفاظ لم يقصدوها أو الى التحرك

بحركات تبدو لنا سخيفة لا معنى لها أو اتخاذ لباس خاص أو نحو ذلك . فان لهم نيات مكبوتة تفلت وهم لا يدرون

فهذا زوج مثلاً عاش مع زوجته عدة أشهر وهو يشعر بهناء العيش ثم أخذت تتكرر أمامه حوادث كره منها الزواج فاذا قعد أخذ يعبث بحلقة الخطبة فيخرجها ويدخلها في أصبعه على غير عادة سابقة . فالحلقة رمز الرباط الزوجي فاذا دبت في نفسه الكراهية لهذا الرباط عمد عقله الباطن الى رمز هذا الرباط وحصر همه فيه

وقد ذكر فرود حادثة زوجة رأت زوجها يمشي على الرصيف الآخر من الشارع فنسيت أنه زوجها . وعادت فتذكرت وتعجبت لهذا النسيان . ولكن فرود عدّ هذا النسيان دليلاً على كراهتها له . ولم تمض مدة طويلة حتى صدق ظن فرود وانفصل الزوجان . وقد سبق ان ذكرنا أن الانسان اذا كره شيئاً لم يحب أن يتذكره وكل حوادث النسيان تقريباً ترجع الى أننا لا نحب الاشياء التي ننساها

وكانا يعرف الرجل المهذب الناشىء في بيت سري عريق في الاخلاق من الرجل المحدث الذي يحاول أن يدخل في زمرة المهذبين . فالاول نشأ على أخلاق وتغرضات وميول لها أصول وفروع في العقل الباطن . فمجاملاته عفوية لا يتكلفها لانها قديمة وهو لا يتصدر لانه يشعر ويقنع بمركزه وإذا اختار لباساً مال الى اللون القاتم . أما المحدث الذي هبط على الثروة حديثاً فانه يشعر بمركب النقص لانه في أعماق نفسه يعرف أنه كان فقيراً مهاناً فهو يحاول أن يخفي هذا الشعور ويبالغ في اخفائه بأشياء عديدة منها أنه ينفق عن سعة بل عن تبذير لكي يزيل وصمة الفقر السابقة . ويلبس

ألواناً مشهورة من اللباس واذا جلس تصـدر وتحدث واذا جامل تكلف الكثير من المجاملة حتى تعدو حدودها . وذلك لان في نفسه عقيدة سابقة بأنه دون من يجالسهم فهو يحاول اثبات المساواة بينه وبينهم ولو تعسف في ذلك

وللرأي العام أحياناً غريزة صادقة في معرفة البواعث . فكلنا مثلاً يكره المحدث مع أن كل عائلة قديمة كريمة كان لها محدث

وقديماً كان الناس يتوجسون من الغلو في التعبد وذلك لان هذا الغلو ينطوي على غلو آخر في الاستسلام للشهوات . ومن أغرب ما يثبته التاريخ أن الرهبانية فشت في العالم المسيحي عنـد ما فشت الرذائل وأكب الناس على الشهوات . وليس من مجرد الصدف أن يكون المماليك أصحاب المساجد الاثرية في القاهرة مع أنهم كانوا يقضون حياة حافلة بالمفاسد

النبوغ ومؤهلاته

يعتقد الدكتور ادلر ان العبقرية هي ثمرة « مركب النقص » ويقول ان جميع العبقريين ناقصون . وليس من السهل أن ينكر الانسان حجته فهو يحصي لك مئات العبقريين ويذكر نقائصهم التي كانت علة تفوقهم . فهذا مثلاً ديموستينيس يولد ألثغ ألكن فيدفعه نقصه هذا الى الاجتهاد في الالقاء حتى ينقلب خطيباً . ومما يذكر عنه أنه كان يضع الحصى في فمه ويقف على شاطىء البحر ويخطب مغالياً بذلك صخب الامواج وعائق الحصى

وفي وقتنا الحاضر يسود الادب الانجليزي رجلان هما شو . وولز . وكل من يدري تاريخهما يعرف أن نبوغهما يرجع الى مركب النقص . فبرنارد شو رجل ضعيف البنية يدلك على ضعفه انه ترك طعام اللحم وهو في العقد الثالث من عمره . وقد حكى هو عن نفسه انه عندما يكتب شيئاً يبلغ به الاعياء أن ينسطح على الارض منهوكاً وكذلك ولز كان في أول شبابه مصدوراً يبصق الدم وهو الآن معدود بين البارعين في لعبة الجولف . وقد سبق أن ذكرنا مثال الدكتور طه حسين وما قاله أناطول فرانس عن نابليون

ولست أعتقد أن مركب النقص وحده يكفي للنبوغ دع عنك

العبقرية . بل لا بد من كفايات أخرى الى جانبه ، وظروف حسنة تساعد على الارتقاء . فمن هذه الظروف أن يقضي زمن الصبا في وسط يرفع الصبي ويغرس فيه تعرضات وميولاً حسنة ويبذر فيه بذرة الخلق المتين والذوق الرفيع . فالهندي الذي ينشأ على التواكل وعلى أن الآلهة تفعل ما تشاء بالفرد قلما ينجح مهما كان فيه من بواعث النبوغ

والايحاء في زمن الصبا من أقوى البواعث على النجاح . فقد ينغرس الميل الى العسكرية من بذلة حربية يلبسها الصبي في أحد الاعياد ويخطر بها وهو يجلجل بسيفه ويسمع كلمات الاطراء من والديه . وتبقى هذه الذكرى كامنة في عقله الباطن حتى يبلغ سن الشباب فيميل بكليته الى الحياة الحربية

وقلما تجد واحداً من الناجحين في أعمالهم وتسأله عن أيام صباه حتى ترى ان الميل قد انغرس فيه منذ الصبا . فهذا رجل ناجح في التجارة مثلاً كان أبوه قد اشترى له في صباه دكاناً صغيراً . وهذا آخر يحب اللغات كان قد رأى كتاباً مصوراً بالالوان الزاهية فجعل يقلب ويسأل ويمني نفسه بأنه سيكون عالماً

وقد يكون مما يساعد على النجاح والنبوغ وهم أوهمه الاب لابنه من حيث كفايته فنشأ الصبي على هذا الوهم أي أنه تخيل ثم خال . وهذا هو السبب في أن كثيرين من الصبيان اذا نشئوا في عائلة لها حسب استأنسوا بهذا الاصل وتوهموا أن الكفاية التي رفعت آباءهم سترفعهم . فهم لذلك يفوزون على الرغم من معاكسة الظروف التي

كانت تميت الهمم في غيرهم ممن ليس لهم هذا الاصل أو الحسب . فالولد ينشأ وهو يتشوق الى الصناعة التي كان يشتغل بها أبوه أو خاله ويرى من الطبيعي أن يسلك مسلكهما وان تبرزهما ينعكس أثره فيه فاذا بلغها تساط عليه الوهم بالنجاح فلا يختار سوى السبل المؤدية اليه وينجح في النهاية . وربما كانت أحسن ثروة يتركها الاب لابنه هي المثال الحسن الذي يحاكيه الصبي ويرى فيه القدوة يقتدي بها اذا صار شاباً

ومن مؤهلات النجاح والنبوغ التسامي بالقوة الجنسية وصرفها الى خدمة الفنون الجميلة . فان هذه القوة تفيض مدة الشباب وتدفع بصاحبها أو صاحبتها نحو الجنس الآخر دفعاً شديداً . فاذا حدث الزواج في ذلك الوقت ذهب الليبد فانفثأت القوة المكبوتة . ولكن اذا لم يحدث التعارف الجنسي فان القوة المكبوتة تنصرف الى أحد طريقين :

١ ـ اما الانحرافات الجنسية في العادات السرية والخروج عن المألوف واما الهستيريا وخاصة في النساء

٢ ـ التسامي نحو خدمة الفنون الجميلة التي تشبه حب المرأة

وهـذا التسامي يحدث أحياناً على غير وعي لان الليبد يجد فيه منصرفاً فيسلك هذه السبيل ويرفه عن صاحبه ذلك الضيق السابق الذي أحدثه الكبت . وكل ما يشعر به الشاب عندئذ أنه يحب الفنون الجميلة أو نوعاً منها حباً عظيماً وهو في أعماق نفسه يحب المرأة . وهو لشدة حبه لهذه الفنون ينبغ فيها لانه ينفق عليها من وقته والتفاته

اكثر مما ينفق على أي موضوع آخر ويشغف بها شغف الرجل بالمرأة . وذلك لان العقل الباطن يرى في التمثال الجميل من المرمر أو صورة المرأة الحسنة أو رسم الملائكة ومزاولة العمل فيها بالرسم أو النحت لذة ليست بعيدة من اللذة الجنسية . وقد يرتقي الانسان بالتسامي أيضاً الى السعي وراء مطالب تبدو في الظاهر كانها بعيدة عن الغريزة الجنسية ولكنها في الواقع متشعبة منها كالتزويق للحائط أو اقامة العمارة العالية أو الزهو بتأليف كتاب أو جمع الثروة أو الالعاب الرياضية أو الغناء أو الموسيقى . فالحركات الرياضية تشبه من أوجه كثيرة تلك الحركات التي يقوم بها الذكر احياناً لاجتذاب الانثى . وهذا واضح في ذكران الطيور . وتلك الصفات المجردة كالزهو والتغلب والسيادة ترجع كلها أيضاً الى هذه الغريزة أما علاقة الغناء والموسيقى بها فواضحة . وهناك من الصفات ما يستبعد الانسان علاقته بهذه الغريزة الجنسية مثل الشجاعة والتضحية ولكنك عند التحليل لا تلبث أن تجد ان اكبر ما يدعو الى مزاولة هاتين الصفتين هو هذه الغريزة . فالحيوان القديم في كل منا لم يكن ليضحي بنفسه أو يتشجع في القتال حتى الموت الا دفعاً عن زوجته واولاده أو حباً في اغتصاب الانثى

ومن هذا يتضح للقارىء أن النفسلوجية الحديثة لا تقول باستسلام الشاب لغريزته الجنسية لانها تجد بالتسامي منصرفاً نافعاً للامة وللشخص . وهي تجد من هذا التسامي مادة للنبوغ وأحياناً للعبقرية كما نرى في مثال لويولا . ولكن اذا لم ينجح التسامي وكانت

التربية السابقة لا تؤهل صاحبها له فيجب عندئذ تفادياً من الانحرافات أن يتزوج

وعلى هذا يمكننا أن نقول ان تأخير الزواج يزيد النبوغ في الامة ولكنه يحدث الى جانب ذلك انحرافات وأمراضاً . ثم يمكننا أن نزيد على ذلك بأن الترخيص في زواج اكثر من امرأة يقلل النبوغ لانه يقلل التسامي إذ ان الغريزة الجنسية تجد منصرفاً طبيعياً لها في التنقل من أنثى الى اخرى

وخلاصة القول أن للنبوغ جملة شروط يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ ـ أن يكون عند الشخص « مركب نقص » قد نشأ فيه وهو صغير

٢ ـ أن يوهم منذ الصغر بالبراعة في ناحية ما من نواحي السعي الانساني

٣ ـ أن يتعود عادات حسنة في السنين الاولى من عمره

٤ ـ أن يتسامى الليبيد عنده نحو درس أحد الفنون

فهذه كلها مجتمعة تعمل للنبوغ اذا ساعد الحظ انساناً على أن تجتمع فيه كلها . وهذا نادر . بل اكبر الظن انها اذا اجتمعت احدثت ما يقرب من العبقرية

وهذا الشرط الثالث الخاص بتعويد الشخص عادات حسنة من أقوى عوامل النجاح . فالفرق بين الشجاع والجبان هو في الحقيقة فرق في العادات لان احدهما نشأ على أن يجابه ويتصدى والآخر تعود ان يحجم ويخنس. وأحياناً يكون الفرق بين الذكي والبليد عادة أيضاً . فمن الناس من يتعود أن ينظر الى الاشياء نظرة التدقيق

والفحص والنقد وآخرون يتعودون المجانة والخفة . ولكن كلامنا هذا لا ينفي ان هناك ناساً يولدون وهم بله تتبين البلاهة في ملامح وجوههم وآخرين تتبين الذكاء فيهم . كما أن العبقري الصحيح يكاد يكون انساناً جديداً في نظام الاحياء

الادب والعلم والنفس البشرية

عند ما ننظر الى تطور الثقافة نجد انها تخرج بالتدريج من ربقة العقل الباطن الى العقل الواعي . فهي سحر أولاً ثم أساطير دينية ثم أدب يحتوي على شتى الفنون وأخيراً نجد العلم

فالسحر هو أول ثقافة الانسان أي انه عندما شرع يضع « النظريات » ويرتب النواميس الطبيعية ويحاول ان يقف على كنه العالم والطبيعة عمد الى السحر . واذا نحن تأملنا الآن طرق السحر كما يمارسها المتوحشون لعهدنا هذا أو كما رويت في الكتب القديمة لم نلبث ان نجد انها كلها تجري على طرق العقل الباطن . فالقاعدة التي يجري عليها السحر هي المحاكاة . فأنا أريد مثلاً ان أقتل خصما لي أكرهه فانا أرسم صورته ثم أحرقها أعتقد بذلك ان هذه الصورة ما دامت تحاكيه وما دامت قد أحرقت فان الاحراق سيناله أيضاً . ومن ذلك ان العرب كانوا اذا امتنع المطر ملئوا اناءً بالماء ثم ارتفع به أحدهم فوق رابية فيصبه يعتقد بذلك ان السحاب سيحكي هذا الاناء فيهطل منه المطر . واذا أبق عبد عند العربي غرز عصا في الارض وربط فيها خنفساء بحبل . فاذا حاولت الخنفساء ان تنجو دارت حول العصا حتى تلصق بها . يعتقد بذلك ان العبد سيطوف

في الفلوات ثم يثوب اليه على نحو ما تفعل الخنفساء عند ما تثوب الى العصا وهي تحاول الفرار . أي ان ما يحدث للخنفساء يحدث للعبد .
وذكر ياقوت عن أهل دنباوند انه اذا « دامت عليهم الامطار وتأذوا منها وأرادوا قطعها صبوا لبن المعز على النار فانقطعت » قال ياقوت : « وامتحنت هذا من دعواهم دفعات فوجدتهم فيه صادقين »

ومعنى صب اللبن على النار انه يتبخر ويجف وهذا ما يراد بقطع المطر أي ان السحاب يذهب بخاراً فلا يتكاثف ويقع ماء . فما يحدث للبن يراد احداثه للمطر على سبيل المحاكاة

وقد رأينا في فصول عديدة سابقة ان المحاكاة مبدأ من مبادىء التفكير للعقل الباطن وأوضحنا قيمتها في الايحاء ولذلك لا ندهش ان تكون المعارف الاولى للانسان قائمة على سحر المحاكاة كما ان العقل الباطن قد سبق العقل الواعي

وقد أخذت الاساطير الدينية مكان السحر عند الانسان لاول عهده بالثقافة الدينية . وأساطيره كلها من عمل العقل الباطن . فقد قلنا ان هذا العقل كما هو ظاهر من أحلامنا لا يدرك الصفات المجردة ويقيم في مكانها أشخاصاً يرمزون اليها . فنحن نفهم العظمة ونراها في الحلم رجلاً ضخماً . وكذلك عندما شرع الانسان يبتكر نظرية لخلق الكون لم يجد ما يوافقه سوى ان ينسب هذا الخلق الى عدة أشخاص أقوياء . فالآلهة القديمة عند الرومان والمصريين والاغريق وغيرهم هي المحاولات الاولى لايجاد نظرية للخلق . ولكن لما كان العقل الواعي لم يهتد بعد الى الطرق العلمية الحديثة ووضع النظريات المجردة فانه اعتمد على طريقة العقل الباطن في الرمز الى القوى

الطبيعة بأشخاص عظماء أطلق عليهم أسماء الآلهة

ونشأ الادب بجميع فروعه أي الفنون الجميلة كلها بما فيها من شعر ونثر وتصوير ومثالة وعمارة عقب الاساطير وكان اشتغاله أولاً بهذه الاساطير ثم استقل بالتدريج . واذا نحن تأملنا الادب بجميع فنونه ألفيناه قائماً على الخواطر أكثر مما هو قائم على التفكير الواعي . والخواطر هي طريقة العقل الباطن . فالشاعر لا يتقيد بعقله الواعي الا أقل التقيد ويترك نفسه للخواطر والكلمات الطارئة حتى ينظم القصيدة بخلاف العالم الذي يتقيد بعقله الواعي ويضع ترسيم البحث قبل ان يشرع فيه . والفنون القديمة كلها محاكاة وكان المثّال أهم من المعمار لأن الاول كان يجيد عمله بخلاف الثاني الذي بقي فنه ناقصاً لان العقل الواعي لم يكن قد استقر تماماً في النفس

فالعالم القديم هو عالم الفنون ولذلك نرى الشعر الجاهلي ونعجب ولا نستطيع أن نجيد في النظم أكثر مما أجاد القدماء. وكذلك صنع التماثيل قد بذنا فيه القدماء . أما في الفنون التي تتصل بالعلم كالعمارة فاننا نفوقهم فيها

والقرون الوسطى هي عصر الصراع بين الطريقة الادبية والطريقة العلمية أي بين العقل الباطن والعقل الواعي ، ولذلك نجده حافلاً بتلك الابحاث « الكلامية » التي كانت أشبه شيء بالشروع في البحث العلمي بالتدقيق أولاً في معنى الالفاظ والترتيب المنطقي . ونحن نقرأ هذه الابحاث الآن فلا ندري هل هي علم أو أدب . والواقع أنها حلقة الاتصال بين العقل القديم والعقل الجديد

وأخيراً ترانا نعيش الآن في عصر هو عصر العلم . حتى الادب

نفسه صار يستغل العلم فأكثر الكتاب استعمالا للفسلوجية الحديثة هم الادباء . وذلك لأن العقل الواعي قد أوشك أن يبلغ أشده ويسيطر على نظام الهيئة الاجتماعية

وقد كانت الثقافة القديمة قائمة على الادب بفنونه المختلفة . وقد أثمرت للقدماء حضارة زراعية . أما الثقافة الحديثة فتقوم على العلم وقد أثمرت أو هي ستثمر حضارة صناعية . وفي وقتنا الراهن نجد للامم العظيمة الراقية مثل انجلترا وألمانيا والولايات المتحدة ثقافة علمية وحضارة صناعية بينما الامم الشرقية ما تزال في أسر العقل الباطن تحب الفنون وتمارس الزراعة فثقافتها أدبية وحضارتها زراعية

وفي أحلامنا وخواطرنا حين يطمو بنا العقل الباطن يرجع بنا التفكير الى السبل القديمة . ومهما حاولنا أن نجعل معيشتنا وفق ما يرسمه لنا العقل الواعي فاننا ما نزال نحن الى الطرق القديمة وما زالت هي تؤثر فينا

الفكاهة والفنون الجميلة

ليس أدل على قوة الغريزة الجنسية من ان معظم النكات التي يتفكه بها « أولاد البلد » تحور وتدور حولها . فقلما يتألف مجلس من العوام الا وتسمع منهم اذا شرعوا في المزاح أنواع التورية الخاصة بهذه الغريزة . وذلك لانهم في أوقات السرور ورفع التكاليف يتملصون من قيود الحضارة فيعبرون عن هذه الغريزة بالتورية والتلميح وينطلق العقل الباطن في اختراع الرموز كما يفعل في الاحلام . والتورية من نوع الرمز

ونحن اذا اشتدت بنا العاطفة عاطفة السرور أو الخوف أو الحزن ضعف العقل الواعي وانطلق العقل الباطن يعبر عن هذه العاطفة بطرقه التي يستعملها في الاحلام . فقد نجمد عن الحركة اذا فاجأنا لص فأخافنا ونشعر بما يشعر به الحالم وقت الكابوس . واذا اشتد السرور استخفنا الطرب فيذهب عنا وقار الوعي حتى نستملح النكتة السمجة ونستحسن ما فيها من رموز وقحة . واذا بلغ الحزن من الأم لوفاة ابنها عمدت الى ملابسه فتحملها وتبكي عليها والملابس هنا رمز لفقيدها كما ان التورية في النكتة رمز للغريزة الجنسية

والرموز في الفنون الجميلة كثيرة وكلها تدل على قوة الغريزة الجنسية فالمثال يصنع تماثيل مختلفة للمرأة ويطلق عليها أسماء الفضيلة أو التقوى أو الغيرة أو السعادة أو نحو ذلك . وهذا كله يدل على ان الحب الجنسي هو أصل الفضائل الشائعة حتى اننا عندما نريد أن نجسمها لا نرى لها أوفق من جسم المرأة

والادب يعتمد على العقل الباطن في كثير من أساليبه كالشاعر يصف رسوم الدار وهو يرمز بذلك الى حبيبته الراحلة . ونحن نجد في الادب كالاشعار والقصص والرسوم والتماثيل من اللذة مثلما نجد في الخواطر والاحلام . وذلك لأن الحضارة تكبت في أنفسنا طائفة كبيرة من العواطف فيقوم الاديب بالتفريج عنها بفن من الفنون الجميلة التي يمارسها . ولكنه مع ذلك لا يكشف عن عواطفنا ساذجة غشيمة كما نراها في الاحلام في اكثر الاحيان بل هو يتسامى بهذه العواطف ويعلو عليها فيرفعنا معه الى مستواه . ومن هنا وجوب الحرية التامة للأديب بل يجب أن يكون الادب مكشوفاً غير مستور بحيث يمكن الاديب أن يعرض لأي موضوع لأن مهمته أن يتسامى بالعواطف ويرفع القارىء ويستعمل غرائزه لما هو أرقى من ظاهرها . وكما ان الاحلام والخواطر تخفف من ضغط العواطف المكبوتة كذلك الأدب يخفف منها ويتسامى بها أحياناً الى ما يرفع القارىء . وهو لا يستطيع ذلك الا اذا كان له الحق في أن يمس الاشياء التي يمسها كل انسان منا في سريرة قلبه

وللحياة الاجتماعية التي نعيشها الآن تكاليف تكبت عواطفنا

وخاصة الجنسية منها بحيث يتأخر الشاب عن الزواج مدة طويلة بعد سن المراهقة . وهـذا الكبت مفيد الى حد ما لانه يجعل العاطفة المكبوتة تنصرف الى عمل ما يمت بصلة الى أحد الفنون الجميـلة . ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا ان التاريخ يثبت ان الامم الشرقية التي أكبت على اللذة الجنسية واكثرت من الزواج الباكر أو أباحت للرجل أن يتزوج عدة نساء لم تتقدم فيها الفنون الجميلة بل بعضها قاطع هـذه الفنون مقاطعة تامة . ومع ذلك فهذه المقاطعة للفنون لم تقلل الاقبال على الشهوات الغشيمة والاستزادة منها . وهـذا بعكس ما نرى في الامم التي يتأخر فيها الزواج . فان العاطفـة الجنسية المكبوتة تستحيل الى قوة دافعة تنصرف الى خدمة الفنون الجميلة . ثم هذه الفنون نفسها تقلل من حدة هـذه الغريزة في الشبان لانها تتسامى بغرائزهم . وكل هـذا يقودنا الى الاستنتاج بأن ممارسة الفنون الجميـلة وخاصة ما كان مكشوفاً منها كتمثال المرأة العارية (مع التسامي كأن يرمز المثّال الى التمثال بمعنى التقوى أو البر أو نحو ذلك) يخفف عن العقل الباطن ذلك اللبيد المحبوس الذي يريد أن ينطلق بأية وسيلة

وقد اكثرنا في هذا الكتاب من نسبة الادب بفنونه الجميلة كلها الى العقل الباطن ونسبة العلم الى العقل الواعي . ولكننـا لا نحب أن يؤخذ هذا الكلام على اطلاقه فليس هناك حد فاصل تام الفصل بين العقلين اذ هما يتداخلان عند الهوامش . فخيال العقل الباطن يختلط أحياناً كثيرة بمنطق العقل الواعي . والمخترع كالشاعر

كلاهما يفكر ويتخيل وان كان الاول اكثر منطقاً والثاني اكثر خيالاً. والتفكير العلمي نفسه يحتاج الى نوع من الحضانة في العقل الباطن، يختلف زمانها من ايام الى أشهر بل احياناً الى سنوات . وهنا يجب ان نذكر قول رفرز وهو رجل عاش طول عمره وهو مغموس في التجارب العلمية : « كثير من الافكار العلمية التي اقدرها اكثر من غيرها واللغة التي اكسوها بها كانت ترد الي في تلك الحال التي تترجح بين اليقظة والنوم وتتصل بالنوم التام ».

كشف الجريمة بالعقل الباطن

سبق أن ذكرنا انه بالتحليل النفسي يمكننا أن نكشف عن حادثة قديمة مخبوءة مكونة في العقل الباطن لا يدري صاحبها نفسه بها. وقد تحدث له هذه الحادثة أحلاماً مزعجة كالكابوس أو تنشىء فيه تعرضات ومركبات تصوغ له خلقاً خاصاً قد يدعوه الى كراهة أشياء أو حبها بدون أن يعرف وجه الميل أو الاعراض عنها. وأحياناً أخرى قد تحدث له هوساً أو جنوناً أو جموداً في الاعضاء

فالتحليل يستثير هذه الحادثة القديمة فاذا وقف عليها صاحبها عرف منها الاصل الذي ترجع اليه علته من حلم مزعج أو تعرض أو مرض آخر نفسي وبوقوفه عليها يصطلح العقل الباطن مع العقل الواعي وتذهب العلة

والتحليل هو بالسؤال والجواب : يسأل المحالُ المريضَ عن الخواطر التي تخطر في باله كلما ذكرت الالفاظ التي تدل على تفاصيل الحلم. وعلى المريض أن يجيبه بسرعة وبلا تفكير أي يجيبه بما يخطر في باله. والخواطر كما سبق تخطر لصاحبها من العقل الباطن اذا ضعف الكبت. فنحن في حال اليقظة التامة نكبت هذه الخواطر ولكن اذا أسرعنا في اجابة المحلل عن الخاطر الذي يخطر لنا عقب

ذكره للفظة خاصة ولم نفكر وندبّر في الجواب فان العقل الباطن يكشف عن نفسه ويذكر شيئاً له علاقة بالحادثة القديمة التي كانت خافية عن وعينا . وذلك لان السرعة تمنع العقل الواعي من الرقابة وتدبير الجواب المخالف . وعلى المحلل عندئذ أن يجمع هذه الخواطر ويستخرج منها تلك الحادثة القديمة المكبوتة

وقد وجد الدكتور يونج أنه يمكنه كشف الجريمة في المجرم بالتحليل النفسي . فالمجرم الذي ينكر جنايته يسهر عليها بعقله الواعي حتى لا تفلت من لسانه كلمة عند السؤال عنها تدل عليها . فاذا فرضنا أن رجلاً قد اتهم بقتل رجل آخر وهو ينكر الجريمة بتاتاً ولكن الاشتباه فيه شديد فان المحلل يعمد الى ظروف الجريمة من سكين أو مسدس أو دم أو ملابس المقتول وهيئة الغرفة وما فيها من أثاث ويختار منها نحو ٥٠ اسما ثم يختار أيضاً نحو ٥٠ اسما لا علاقة لها البتة بالجريمة . ثم يسأل المحلل المتهم أن يخبره بما يخطر في باله كلما ذكر له اسما من هذه الاسماء بحيث يجيب على البديهة بلا روية وبأقصى ما يمكنه من السرعة . فاذا كان المتهم بريئاً لم يشتغل باله قط بالجريمة المعينة فانه يجيب اجابات لا علاقة لها بالجريمة لانه لم يرها ويصير تداعي الالفاظ عنده عمومياً لا يختص بالحادثة . أما اذا كان قد ارتكب الجناية فان لفظة سكين أو دم أو اسم المقتول أو اسم بعض الاثاث الذي كان بالغرفة تدعو لفظة أخرى تدل على الجناية . وهذا هو تداعي الالفاظ أي ان اللفظة التي تعين خاطراً ما في النفس تدعو لفظة أخرى تدل على خاطر قريب منها

وهذا اذا أجاب المتهم على البديهة وبسرعة . ولكنه اذا كان

قد ارتكب الجناية فانه يرفض أن يجيب بسرعة ولو أنه يحاول أن يوهم المجانة كأنه لا يبالي . فهو يجيب بسرعة على ما ليس له علاقة بالجناية فاذا عرض سؤال خاص بالجناية تريث قليلا وأجاب . وهناك مقاييس تقيس السرعة في الاجابة بكسور الثانية فتأخره في الاجابة عن الالفاظ الخاصة بالجريمة يدل على اشتغال باله بها ومحاولته كبت الذكرى. ولكنه مع التريث تفلت من لسانه ألفاظ تدل على الجناية

وأنا أنقل فيما يلي حادثة سرقة حققت بالتحليل النفسي وقد لخصها الاستاذ محمد فتحي في كتابه « علم النفس الشرعي » والذي قام بهذا التحليل هو الدكتور يونج

* * *

كان شاب متعلم في الثامنة عشرة من عمره يقيم في منزل عمه الذي كفله وتولى رعايته بعد وفاة أبيه ، حدثته نفسه أن يسرق نقود عمه ، فلاحظ العم فقد نقوده من آن الى آخر تارة من جيبه وطوراً من خزانته ، فلم يخامره في بادىء الامر أي شك في سلوك ابن أخيه الذي اكرم مثواه وانزله منزلة الولد الامين ، بل اتجهت كل شبهته نحو بعض الخدم فكتم الامر مدة مكتفياً بمراقبتهم ، ولكن لما تعددت وقائع السرقة ولم يفز بطائل ، بلغ الشرطة وطلب اليها أن تحقق القضية لمعرفة الفاعل ، غير انه بعد التبليغ لاحظ على الغلام قلقاً عصبياً واضطراباً نفسياً أثار شكوكه فيه

ولكي يتثبت من حقيقة ذلك ذهب به الى الدكتور يونج في زوريخ بدعوى معالجة أعصابه فعمد الطبيب الى تحليل خواطره « بالتداعي اللفظي » متذرعاً بحجة درس حالته المرضية وتشخيص

علة قلقه واضطرابه . فجهز له قائمة من مائة كلمة دس له فيها ٣٧ كلمة لها علاقة بالسرقة وظروفها ومكان حفظ النقود والعقوبة المقررة للسرقة وما يترتب عليها من النتائج وغير ذلك ، ثم بدأ الاختبار بأن وجه للفتى بضع كلمات عادية ، وطلب منه أن يجيبه عن كل كلمة تلقى عليه بأول كلمة تخطر بباله ، وبأقصى ما يمكنه من السرعة فكانت النتيجة أن كلمة « رأس » نبهت عنده كلمة « أنف » وكلمة « اخضر » نبهت عنده كلمة « ازرق » « وماء ـ هواء » « وطويل ـ قصير » « وخمسة ـ ستة » « وصوف ـ ملابس » وهكذا

ولوحظ أن متوسط سرعة خواطره في التداعيات السالفة كان ثانية وستة اعشار الثانية . ولما جاء دور الكلمات التي لها اتصال بحادث السرقة ظهر أن كلمة « لص » نبهت « نشال » وهي تلبية طبيعية ، ولكن زمنها كان ٦ و٤ من الثانية وأن كلمة « شرطة » نبهت « سرقة » في ٦ و٣ من الثانية . والتداعي ، « سجن ـ عقوبة » تم في ٢ و٤ من الثانية ، وشوهد في بعض الاحيان أن التلبية قد تحصل بسرعتها الطبيعية في بعض التداعيات المحرجة غير أن أثر الانفعال النفسي يظهر في تلبية التداعي التالي ، مثلاً كلمة « مفتاح » نبهت في ذهن الغلام كلمة « مصطنع » في ٦ و١ من الثانية بينما التداعي الذي تلاه « ابله ـ ذكي » لم يتم الا في ثلاث ثوان ، ثم تلاه التداعي « جريمة ـ سرقة » تم في ٨ و١ من الثانية وهو زمن يكاد يكون طبيعياً ، غير أن الصدمة النفسية في التداعي الذي أعقبه كان لها أثر شديد في نشاطه العقلي لدرجة أعجزته عن استحضار أية تلبية لكلمة « طباخ » مع أنها عادية بل استمر عشرين ثانية

واجماً ثم أعقبه التداعي « خبز - ماء » وقد تم في ٦ و ١ من الثانية أي كان زمنه طبيعياً ، ولما هو معروف عن الخبز والماء من أنهما طعام السجون فقد أثار هذا الخاطر في نفس الغلام انفعالا قوياً ظهر أثره في التداعي الذي تلاه بأن أعجزه أيضاً عن الجواب

وعلى هذا النحو تمت عملية الاختبار ودونت الاجوبة مع أزمنتها المختلفة وبعد الفراغ منها اعيد الاختبار بنفس القائمة المثوبة دفعة ثانية فشوهد ان ردود الكلمات التي لها اتصال بالسرقة تغيرت ، فان كلمة جريمة ، كان جوابها في الاختبار الاول « سرقة » وفي الثاني « قتل » وكلمة ينكشف ، كان جوابها أولا «خطأ» وثانياً «يقبض» أما الكلمات العادية فان ردودها لم تتغير

فبتحليل تداعيات كلا الدورين وملاحظة ما طرأ على تداعيات الدور الثاني من التغيير ودرس التأخيرات الزمنية والشذوذ الطارىء على سرعة بعض الخواطر أمكن هذا العالم المحنك أن يقف على كثير من تفصيلات الحادث وتشخيص موقف الفتى تشخيصاً دقيقاً فوجه اليه الاستاذ يونج تهمة السرقة فأنكرها الفتى في مبدأ الامر محتجاً بشدة . فسرد له الطبيب الوقائع التي كشف الاختبار عنها النقاب وقص عليه كيف كان يسرق نقود عمه تارة من خزانته وتارة من كيس نقوده وشرح له الطرق والسبل التي كان ينفق فيها تلك النقود ومن ضمنها انه اشترى ساعة واشياء أخرى قدمها هدية لأخته وهلم جرا . فما كان من الغلام الا أن بهت واعترف في الحال بكل شيء اعترافاً صريحاً . وبذلك أمكن عمه ان يتدارك الامر لانقاذه من السجن

الجماعة من الناس

نحن نعيش الآن في عصر نؤمن فيه بحكمة الاجماع. فلنا برلمان تنفذ كلمته ولنا جمعيات للبر والتعليم وما اليهما . وقد تعلمنا احترام الاجماع ونشأنا على ان نحتقر الخارج على الجماعة في السياسة أو الدين أو المذهب. ونحن نؤمن لأول وهلة بأن رأي الجماعة من الناس خير من رأي الفرد. وقد نتسامح ونقول بأن رأي الجماعة اذا لم يكن خيراً من رأي الفرد فهو على الاقل ليس دونه وخاصة اذا كان هذا الفرد نفسه عضواً من هذه الجماعة

ولكن الواقع أن رأي الجماعة هو على الدوام أحط من رأي الفرد كما سنرى من التحليل الآتي :

الناس في تطور مستمر لم يقف ولن يقف . فهم كلهم يشتركون اشتراك المساواة من حيث الغرائز القديمة أما الكفايات الجديدة فيتفاوتون فيها . فنحن كلنا سواء في غرائز الحب والاكل والقتال والخوف لان كل هذه غرائز قديمة راسخة في الطبيعة البشرية ولكننا نتفاوت في الذكاء أي في هذه الكفاية الجديدة التي حصلت للانسان في الازمنة الاخيرة من وجوده على الارض

والناس في ذلك كالطبقة المتعلمة في الامة كلها تشترك في معرفه

القراءة والكتابة التي تعلمتها في سن الصبا وهي أقدم ما تعلمته . ثم بعد ذلك يتفاوت الافراد في معرفة التاريخ أو الجغرافيا أو الرياضة فاذا فرضنا أننا جمعنا أفراد هذه الطبقة المتعلمة وأردنا ان نظفر منها برأي اجماعي تتفق عليه الجماعة كلها ولا يشذ واحد عنها فان هـذا الرأي لن يعدو حدود معرفة القراءة والكتابة أو يكون في طبقة هذه المعرفة لأن القراءة والكتابة هما « القاسم المشترك الاعظم » الذي تشترك فيه أفراد هذه الجماعة بلا شذوذ ، فهم مثلا لن يتفقوا على رأي في التاريخ أو الجغرافيا أو الرياضة لأنهم لم يتعلموها كلهم

وهـذه حال الجماعة من الناس في كل اجتماع فهم يشتركون في الكفايات القديمة وينزلون منها منزلة المساواة ولكنهم يتفاوتون في الكفايات الجديدة فلا يمكن اجماعهم على شيء منها . ولكن الجديد أرقى من القديم كما هو واضح في الذكاء الذي هو أرقي من الغرائز الغشيمة القديمة . ولذلك فعقل الافراد اذا انفردوا أرقى من عقولهم اذا اجتمعوا. لأنهم في اجتماعهم سينزلون الى ما يشتركون كلهم فيه وهـذا الاشتراك لا يكون الا في الكفايات القديمة في « أبجدية » الذكاء وليس فيما جد من الكفايات، فهم متفاوتون فيه لا يمكن أن يجمعوا عليه . دع عنك ان الايحاء يقوم في المجتمعين مقام الذكاء في الرجل المنفرد

ولذلك يجب أن نسيء الظن بكل ما يجمع عليه الناس

* * *

واذا صح ما قدمناه وجب أن نرى في الزعيم الذي يملك قلوب السواد من الامة رجلاً لا يخاطب الذكاء في الناس بل يخاطب

الغرائز . لان الذكاء للقلة والغرائز للكثرة بل للكل . ويجب أن نذكر أن هذا « الكل » لا يدرك الجدل الذهني ـ ما للمسألة وما عليها ـ لان هذا يحتاج الى ذكاء وهذا الذكاء شيء حديث تتفاوت فيه لا يمكن ان نجمع عليه . أما الغرائز فقديمة كلنا يشترك فيها

فالزعيم يجب ان يجزم . ولكن هذا وحده لا يكفي للزعامة

وانما الشرط الاساسي للزعامة ان يعمد الزعيم الى « الايحاء » فيستعمله مع الجماعة . وقد يستعمله على غير وعي منه كما هو واضح في غلادستون أو زغلول أو كتشنر

والايحاء هو ذلك التأثير الذي يشعر به الانسان فيؤدي ما يطلب منه ويسلك مسالك المطاوعة والرضا دون أن يجعل للعقل الواعي سبيلا الى المناقشة والتردد . وقد يكون الايحاء من الخطيب للجماعة بالقوام أو الصوت أو السيرة السابقة أو الشيخوخة الصالحة ولا يكون أبداً بالمنطق

ونحن نتأثر بالايحاء على غير وعي . وهذا يدل على ان الخطيب الذي يوحي الينا أغراضه يخاطب فينا العقل الباطن. والسمة الاصلية لهذا العقل أنه غير واع

ولكن العقل الباطن أحط من العقل الواعي . ولذلك فنحن اذا اجتمعنا للخطيب السياسي أو الديني تجردنا من أهم صفة فينا وهي ذكاؤنا الواعي وارتددنا الى حكم الجماعة نتأثر بالايحاء

والايحاء تختلف درجاته فهو في الحيوان الاجتماعي أكثر مما هو فينا . فقطيع الخراف يعبر الجدول الذي تعبره أولى النعاج . والخيل تشرد لان واحداً منها شرد . ونحن في المظاهرة نجري

وتتفرق لاتنا رأينا واحداً منا يفر. واذا رعب أحد المجتمعين سرى الرعب الى سائرهم

ففي حالة الاجتماع يقوم الايحاء مقام الذكاء الذي هو الصفة الغالبة لنا وقت الانفراد وبعبارة اخرى نقول ان الفرد ينحط مجتمعاً ويرتفع منفرداً

ومما يدل على ان الايحاء دون الذكاء أي ان العقل الباطن دون العقل الواعي أننا في المرض والصبا والطفولة وفي حالة السكر من الخمر والتخدير من الكلوروفورم نكون أكثر استعداداً للايحاء فنصدق ونطاوع أكثر مما نكون وقت الصحة والشباب والصحو

وخلاصة القول اننا في اجتماعنا نرتد الى الوراء في سلم التطور فيكون السائد علينا في مسلكنا عقلنا الباطن أحط عقلينا . وعندئذ يكون سبيل الاقناع لنا هو الايحاء لا المنطق

ومن هنا تفهم قوة الخطابة وتعلقها بالخطيب من حيث هيئته وطول قامته ونبرات صوته والوهم السابق عنه والاعتقاد الراسخ في أخلاقه السامية فكل هذه الصفات توحي الينا احترامه فنصدقه ونطاوعه بلا جدل . ومثل هذا الخطيب يصح أن يكون زعيما

ومحور البحث في هذا المقال اننا نريد أن نثبت ان الانسان في وقت اجتماعه يكون أحط مما هو في وقت انفراده . فهو في الحالة الاولى ينزل الى مستوى الكثرة الساحقة فيرى أنه يشترك وإياها في الغرائز القديمة دون الذكاء الجديد . ثم أيضاً يقوم الايحاء مقام المنطق

فنحن نعرف مثلاً من الابحاث النفسية الحديثة أن الكابوس

الذي يحدث لنا في الليل انما يحدث لعواطف محتبسة نحبسها في يقظتنا فتنفس عن نفسها في النوم أي حين يكون عقلنا الواعي غافياً ونحن نسلك في الكابوس مسلك أسلافنا القدماء حين كانوا يستجيبون للخوف بالجمود عن الحركة حتى لا ينتبه اليهم الوحش المغير عليهم فينجون بجمودهم هذا . كما هو الحال الآن في بعض الحيوان الذي يجمد عند المفاجأة ونقول نحن أنه يتماوت حيلة للنجاة كالثعلب مثلا. فنحن نجمد في الكابوس ونرى وحوشاً

ومعنى هذا أننا في الكابوس نفكر بعقل حيواني قديم . وقد ثبت بالتحليل ان أصل الكابوس هو حبس عاطفة قديمة أو حديثة

وهذا هو حال الجماعة في الثورة. فهي في الجماعة كالكابوس في الفرد من حيث العلة الاولى وهي حبس العواطف ومن حيث المسلك وهو المسلك الحيواني القديم . فالثورة كما نعرف جميعنا تنشأ من الضغط السابق المتمادي ثم تفور فجأة فنعمد فيها ونحن مجتمعون الى أعمال وحشية كأن نحطم المخازن أو ننهب الاغنياء أو ندمر دور الحكومة أو نقتل الزعماء أو نتهتك في علاقاتنا بالنساء . فقد حدث كل ذلك في الثورة الفرنسية الكبرى وحدث ما يشبهه في ثورتنا سنة ١٩١٩

فهذه الثورة تبصرنا بأشياء كثيرة: منها أنه سبقها أربع سنوات من الضغط فلم نكن نقدر ان تنفس بالكلام عما في قلوبنا ثم زاد الضغط بسرقة جمالنا وغلاتنا بأثمان اسمية واستفحل الضغط حين كلف المأمورون في المراكز بأخذنا بالقوة للعمل في فلسطين .

فكان المأمور يربط الفلاحين بالحبال ثم يسوقهم الى ميدان القتال « متطوعين »

ثم جاء الكابوس فانحطت أخلاقنا انحطاطاً شنيعاً وصرنا لا نرى في الفجور شيئاً يعيبنا فنهبنا المخازن وحطمنا القطرات وصار الشاب الذي لا يطيق ان يذبح الفرخة وهو منفرد يقتل الجندي الانجليزي بل أحياناً يمثل به. وكل هذا لأ ننا كنا في كابوس بعثه الضغط السابق

والعبرة مما ذكرناه آنفاً واضحة . وهي أولا الشك في ما يجمع عليه الناس من الآراء والعقائد لان الوسيلة لهذا الاجماع هي النزول الى المستوى الذهني واستعمال الايحاء في مكان المنطق . ثانياً تحامي الضغط الذي يولد الكابوس . وأي كابوس رآه الناس في العالم مثلما رأى قيصر روسيا في الشيوعية . بل أي ضغط أنزله انسان بأمة مثلما أنزله القيصر بالروس ؟

فأخيب السياسيين في العالم هو ذلك الذي يلجأ الى الضغط لانه بذلك يحبس العواطف لكي تنفجر يوماً ما . وهي في انفجارها تجري على أقدم الاساليب كما أننا في الكابوس نجري على أقدم أساليب الخوف

والطريقة المتبعة الآن في معالجة الكابوس هي تحليل نفس الشخص ومعرفة العلة الاصلية ، فاذا وقف الشخص عليها وتجردت من رموزها وستائرها طلب اليه ان يواجه الموضوع ويعالجه بذكائه ومنطقه ولا يخفيه عن نفسه لانه باخفائه واقصائه يندس الى العقل الباطن الذي يعرب عنه بطرقه القديمة

وهذا هو ما يجب أن نفعله اذا كنا نريد توقي الثورة . يجب

أن نصارح الناس ونجابه المسـائل التي يشكون منها ونحاول حلها . وفي هذه المحاولة تنفيس لما احتبس في النفس ويوشك أن ينفجر كابوساً مظلماً مدمراً

السيكولوجية الحديثة وأثرها

موضوع السيكولوجية الحديثة هو العقل الباطن . فاكتشاف العقل الباطن يرجع الفضل فيه الى رجال هذا العلم الذين أوضحوا أثره في الاخلاق والعقائد وبينوا ما للمسائل الجنسية من الأثر الكبير في حياتنا اليومية وفي فنوننا وآدابنا

فالقارىء لهذا الكتاب يتضح له ان العقل الواعي عقل اليقظة والانتباه لا يسيطر على حياتنا ولا يقرر ميولنا وأذواقنا وانما يرجع ذلك كله الى العقل الباطن

فهذا العقل الباطن هو خزانة العواطف المكبوتة التي يمنعنا الحياء أو الشرائع أو الفقر من الاستسلام لها . وهو ينفس عنها بالخواطر والاحلام وأحياناً اذا كانت هذه العواطف قوية والكبت شديداً فانها تنفجر وتتخذ هيئة هستريا أو نوراستينيا تشبه الجنون

ومن هذه الظواهر نعرف ان حبس العواطف يؤذي الناس وخصوصاً تلك العاطفة الجنسية التي هي أعنف العواطف جميعاً . وليس معنى كلامنا ان السيكولوجيين يقولون بالاستسلام لهذه العاطفة بل يقولون بالصراحة في الكلام عنها وينصحون للشاب بالمناقشة فيها . وذلك لان هذه المناقشة تزيل عنها مسحة اللغز الذي يمسحها

عليها الخفاء . ومن أغرب ما ثبت من الانتحار وهو يؤيد الدعوة الى الصراحة والبوح والمناقشة ان الامم الكاثوليكية أقل الامم انتحاراً . وهذا ثابت من الاحصاءات التي تنشرها الحكومات . وهـذه القلة تعزى بلا شك الى ان الكاثوليكي يعترف الى الكاهن وباعترافه ينفس عن عاطفة مكبوتة لا يطيق احتمالها . وليس التحليل الذي يقوم به النفسلوجي مع المريض سوى مناقشة يعترف فيها المريض بمركباته القديمة فاذا توضحت أمامه سكنت نفسه اليها وذهب عنه مرضه

ولا يمكن أن نعالج الشاب بالاستسلام لعواطفه لاننا بذلك نقيم في نفسه صراعاً جديداً في مكان الصراع القديم . لان الاستسلام للعواطف يجر وراءه تبعات جديدة تحدث عواطف جديدة مؤلمة للنفس . فاذا لم يكن الزواج مستطاعاً فانه يمكن التنفيس عن العاطفة الجنسية بالتسامي أي بممارسة نوع من الفنون الجميلة أو بالسعي في سبيل البر بما هو ذو علاقة بهذه العاطفة

وبدرس العقل الباطن يمكننا الآن أن نفهم أساطير الانسان القديم وكيف نشأت عقائده وكيف اهتدى الى الاداء بالمجاز والاستعارة . فاننا في أحلامنا نرى أحياناً كثيرة صورة أسلافنا ونرى في رمز الحلم الاستعارة الاولى للغة

وبالعقل الباطن نعرف الآن ان العقائد لا تقوم بالبرهان بل بالايحاء . وان الرأي العام يتكون بالعقائد وان التعصب للرأي السياسي الآن يقوم مقام التعصب للرأي الديني في الازمنة القديمة

وتربية الطفل كادت تكون الآن من المكتشفات الجديدة لما

أُسبغ عليها درس العقل الباطن من النور . فاننا نعرف الآن ان المركبات المؤذية تحدث أيام الطفولة وان قوة الايحاء كبيرة جداً في تلك السن . وان تربية الاخلاق يجب ألا تتعدى السنين الخمس أو الست الاولى للطفل

والخلاصة ان درس العقل الباطن يجعلنا الآن :

١ ـ نقدر الفنون الجميلة ونعرف أنها ليست للتسلية واللذة فقط بل أيضاً لتوجيه الغريزة الجنسية الى ما يرفع ويرقي بحيث ترى الآن ان من واجب كل فرد حفظاً لصحة نفسه وجسمه أن يمارس أحد الفنون الجميلة

٢ ـ نعرف ان العقائد سياسية كانت أم دينية تقوم في الغالب على الايحاء فلا ينفع فيها جدال أو علم

٣ ـ ان الصراحة في المسائل الجنسية تقلل من حدة العاطفة وقد تفتح هذه الصراحة باباً للتسامي

٤ ـ ان التربية الاخلاقية الحقة يجب ألا تعدو سن الصبا فيجب لذلك أن نغرس في ذهن الصبي بجميع ضروب الايحاء خصال الشجاعة والجرأة والدقة والبر

٥ ـ ان كل شاب يمكنه أن يعالج نفسه من الاخلاق السيئة والعادات المرذولة بأن يغرس في نفسه عقيدة يوحيها الى نفسه بالتلقين والتكرار

٦ ـ ان النجاح والصحة ميسوران لكل انسان اذا أوحاهما الى نفسه ودأب في ذلك وانتفع بعقله الباطن

٧ ـ ان النفس الأنسانية تنزع الى الرقي ولو كان في ذلك هلاكها فكل شاب يعمل لترقية نفسه يجد الطريق الى ذلك أيسر عليه من الطريق الى الانحطاط لأنه في الحال الاولى يجاري طبيعته الاصلية التي يثبتها التطور السابق للانسان

٨ ـ ان العقل الواعي هو عقل المعرفة والعلوم وانه يوشك أن يحدث في العالم المتمدين حضارة صناعية حتى الأدب نفسه قد اصطبغ صبغة علمية بتأثير العقل الواعي

الالفاظ الاصطلاحية في هذا الكتاب

لكل علم حدوده أي الفاظه الاصطلاحية التي تتقيد بمعنى خاص للعلم وان كان معناها في اللغة عاماً . وأنا قد استعملت في هذا الكتاب جملة الفاظ تقيدت بها في التعبير ولزيادة الايضاح أذكرها هنا مع ما يقابلها من الحدود الانجليزية حتى لا يختلط المعنى على القارىء الراغب في التوسع :

استهواء : هو hypnotism أي النوم المغنطيسي وهو النوم يحدثه الانسان بالايحاء والتلقين

ايحاء : هو suggestion وبه يمكن احداث الاستهواء وله جملة وسائل فقد يكون بالتلقين أو المحاكاة أو القدوة أو غير ذلك

تسام : sublimation أي رفع الغريزة من حالتها الغشيمة الاصلية الى حالة أرقى منها كالغريزة الجنسية يمكن التسامي بها الى حب الفنون الجميلة

تغرضات : هي prejudices عقائد تقوم في النفس من حوادث سابقة كأن يكره أحد الناس التبغ أو الجنبري لحادثة حدثت له جعلته يشمئز من أحدهما

جمود : هو immobility كالذي يحدث لنا في الكابوس حين نجمد عن الحركة

خاطر : هو daydream أي حلم اليقظة الذي نستسلم له وقت الاسترخاء وغفلة العقل الواعي

ضغط : repression هو ان نمنع عن ذهننا خاطراً مؤلماً ويكون المنع على وعي منا . أما الكبت فهو suppression أي اننا نمنع الخاطر المؤلم عن ذهننا بلا وعي بالمنع . ورفرز يعتقد ان هناك فرقاً بين الاثنين ولكني أظن ان النتيجة واحدة منهما

عاطفة : affect هي ذلك الاحساس الذي يعقب المعرفة ويدفع الى العمل كعاطفة الجوع تعقب رؤية الطعام (المعرفة) وتحدث النزوع أي الرغبة وتسبق الاكل (العمل)

عقل باطن unconscious mind هو العقل الذي لا ندري أي لا نعي به وهو عقل الاحلام والخواطر الطارئة

عقل واع : conscious mind هو العقل الذي نعي بعمله عندما نتكلم على مهل وروية وتدبير

عقيدة : belief, creed هي الايمان عن طريق الايحاء أي عن طريق العقل الباطن وهي لذلك لا يعتمد صاحبها في صحتها على المنطق وهي اكثر احداثاً للعواطف من المعرفة وهي لذلك أهم عامل في تكوين الاخلاق

كبت : هو suppression أي منع خاطر مؤلم عن الوعي ومنع حادثة مؤلمة عن أن نستذكر وذلك بدون ان نعي

لبيد : libido هو تلك القوة الجنسية في العقل الباطن تريد أن تنطلق على الرغم من الكبت والضغط . وانطلاقها عن سبيل العمل أو الاحلام أو الخواطر وهي اذا كبتت تحن الى التسامي . ولكن يونغ يرى انها قوة الحياة ذاتها وانها هي التي تدفع بالشخص الى الرقي والمجاهدة وادلر يرى انها الرغبة في التفوق

محاكاة : imitation احدى وسائل الايحاء كأن يرى الانسان رجلاً عظيماً يلبس لباساً خاصاً فيستحسن هذا اللباس على سبيل التقليد

معرفة : cognition هي للعقل الواعي بمثابة العقيدة للعقل الباطن . ولذلك فالعلم معارف . والمعـارف ضعيفة الاثر في احداث العواطف

نزوع أو رغبة : conation

هستريا : hysteria مرض نفسي يعتري النساء والرجال ولكن الاصابة في النساء اكثر ويرجع الى ان اللبيد قوي جداً لا ينصرف بالاحلام والخواطر . فعندما يطغى العقل الباطن على العقل الواعي يستجيب المريض للمؤثرات الخارجية استجابات قديمة كأن يجمد كله أو بعضه للخوف

فهرست

مؤلفات أخرى لسلامه موسى

اليوم والغد

حرية الفكر وابطالها في التاريخ

نظرية التطور وأصل الانسان

احلام الفلاسفة

مختارات سلامه موسى

اشهر قصص الحب التاريخية

اشهر الخطب ومشاهير الخطباء